

طرائف ديبلوماسية

السفير جمال بركات



www.liilas.com

florist

مركز الأهرام
للترجمة والنشر

الأهرام

طرائف دبلوماسیہ

الفصل الاول
۱۸۵۶ء تا ۱۸۵۷ء

۱۱. حقل القصور
۱۲. في مشارق القصور
۱۳. حقل القصور
۱۴. حقل القصور
۱۵. حقل القصور
۱۶. حقل القصور
۱۷. حقل القصور
۱۸. حقل القصور
۱۹. حقل القصور
۲۰. حقل القصور

السفير جمال برکات

الطبعة الأولى

9 MAY - 12:45

Figure 1 consists of two bar charts, labeled (a) and (b), showing the distribution of the number of children per woman. The x-axis for both charts represents the number of children (0, 1, 2, 3, 4, 5, 6, 7, 8, 9, 10, 11, 12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 19, 20). The y-axis represents the percentage of women. Chart (a) is for the 1970s and chart (b) is for the 1980s. Both charts show a high proportion of women with 2 or 3 children, with a slight shift towards 3 children in the 1980s.

Number of children	1970s (%)	1980s (%)
0	0.5	0.5
1	1.5	1.5
2	45.0	45.0
3	40.0	42.0
4	10.0	10.0
5	2.0	2.0
6	0.5	0.5
7	0.2	0.2
8	0.1	0.1
9	0.1	0.1
10	0.1	0.1
11	0.1	0.1
12	0.1	0.1
13	0.1	0.1
14	0.1	0.1
15	0.1	0.1
16	0.1	0.1
17	0.1	0.1
18	0.1	0.1
19	0.1	0.1
20	0.1	0.1

1944 - 1945

الطبعة الثالثة

1944年11月15日

جميع الحقوق محفوظة

الباحث : مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة

الصفحة ٥٧٧.٨٣ - الكس ٩٢.٠٢ - أن

المحتويات

V قرة

الفصل الأول

الأيام الأولى

١١	حفل القصر
١٢	في مطار القاهرة
١٥	تجنية البحرية
١٦	إنجاز المهمة
٢٠	في واشنطن

الفصل الثاني

في الريقيا

صفحة

٢١	فتيات ، جيشا ، اثيوبية
٢٥	اوراق الاعتقاد
٢٨	في صحتك
٤٠	دارسكن السفير
٤١	العلم الوطني
٤٣	خذ ما تشاء
٤٥	الذباب
٤٧	هجوم ودخان
٥١	حاشية

الفصل الثالث

ثلاجة الشمال

١٧٤٨

٥٩	الاقدمية
٦٢	الرياضة الشتوية
٦٤	السونا الفنلندية
٧٠	الفنلدة
٧٧	نافذة على الشيوعية

الفصل الرابع

خاتمة المطاف

صفحة

٨٢	إلى بغداد
٨٥	توطين الفلاحين
٨٩	المزارات المقدسة
٩٢	إلى طهران
٩٦	حاشية
٩٩	العودة للوطن
١٠٣	في السعودية

ولها هذه الصورة تكون مقرونة من الفرد الفارسي ومن ربة البيت
حيث يبدون فيها سياحة بحيلة حول الحكيم

أما من الدولتين الشرق - أيا كان البلد الذي يقع المرء فيه - فاعتد
أنه سيحدث في هذه الأوقات حفلة تورية وخبرة ربيع لملك الجديد - وقد يحد
ذلك في مواقف مختلفة - وقد يتخلل مع الأفكار التي أوردتها الكثير وقد تكون له
أفراد مغتربة - ولكن في جميع الأحوال ربما وجد فيها منطقتان مشوقة وبصورة
لأنها في واقع الأمر تشكلت - كما يتصور أوضاعها - وما الدبلوماسيون في
مهمتهم إلا أسود غامراً كثيرة لآلة شخصية ذاتها مستقلة أي كواكب
مقلوبة ومسميات وطنية مزينة وشكلها عصرية متواصلة - وإهم أسلوبهم
الذين في التفكير الذين يحدون بين شخصياتهم القوية وتوجهاتهم الدولية -

ولم تعد الدبلوماسية - بهذا المعنى الضيق - مجرد علاقات واستقلالات
والصناديق والبروتوكول كما هي الصورة القديمة عنها - ولم يعد الدبلوماسي
الغولجي هو من يجيد بالعسك والتسويق والعولمة ويقلق لعدة أرباب القصور -

مقدمة

إن الفكرة من وراء نشر هذه الأوراق الدبلوماسية المتناثرة هي إلقاء الضوء على بعض مراحل العمل الدبلوماسي التي قطعناها خلال خدمتي في مواقع متفرقة على امتداد أكثر من ثلاثين عاما .

وقد قصدت أن أجمع فيها عددا من المفارقات والمواقف التي صادفتني خلال هذه الرحلة إلى جوار الانطباعات والتعليقات السياسية عن بعض البلاد التي عملت فيها بحيث تجمع في النهاية بين الجد والطرافة .

فهى ليست مذكرات سياسية تقليدية على نحو ما يكتبه بعض السفراء وكبار السياسيين عن مشاكل السياسة والحكم وإنما هى أوراق ذات مذاق خاص .

ولعلها بهذه الصورة تكون مقروءة من الفرد العادى ، ومن ربة البيت بحيث يجدون فيها سباحة خفيفة حول العالم .

أما عن الدبلوماسى المحترف - أيا كان البلد الذى ينتمى إليه - فاعتقد أنه سيجد في هذه الأوراق حصيلة تجربة وخبرة زميل له قد تفيد ، وقد يجد نفسه في مواقف مماثلة - وقد يتفق مع الأفكار التى أوردها الكاتب وقد تكون له آراء مغايرة . ولكن في جميع الأحوال ربما يجد فيها صفحات مشوقة وعبرة لأنها في واقع الأمر تعكس ذاته وتصور أوضاعه - وما الدبلوماسيون في مجموعهم إلا أسرة عالمية كبيرة ذات شخصية ذاتية مستقلة لهم كوادير متقاربة ومسميات وظيفية موحدة ومشاكل معيشية متجانسة ، ولهم أسلوبهم المتميز في التفكير الذى يجمع بين شخصياتهم القومية وتوجهاتهم الدولية .

ولم تعد الدبلوماسية - مهما تحسر البعض - مجرد حفلات واستقبالات وانحناءات وبروتوكول كما هى الصورة القديمة عنها . ولم يعد الدبلوماسى النموذجى هو من يجيد رياضتى التنس والجولف ويتقن لعبة البردج فحسب ،

بل لقد تغيرت المفاهيم وأصبحت المهنة تحتاج لدراسة اللغات ومتابعة يقطعة للأحداث الدولية والوجود في أماكن الخدمة الشاقة ومناطق الخطر والتعرض لحوادث الإرهاب الدولي .

ومع ذلك مازال للدبلوماسية بريقها ، وللعمل الدبلوماسي جاذبيته في التنقل والتعرف على مختلف الثقافات والحضارات . ومازال البعض ينظر إلى ما يدور في سرية في القاعات المغلقة من لقاءات أو مفاوضات أو مباحثات دبلوماسية على أنها أمور غامضة تمس مصير البشرية . وقد يكون ذلك البعض مبالغاً في تصوره . ففي العالم المعاصر أدى التطور في وسائل الاتصال والانتقال والتقدم التكنولوجي السريع إلى تطوير أسلوب العمل الدبلوماسي تطويراً جذرياً - وظهر الرأي العام المحلي والعالمي كقوة مؤثرة في اتخاذ القرار السياسي لدى الدول والحكومات . وقد ساعد على ذلك ضخامة تأثير وسائل الإعلام ودورها في تشكيل الرأي العام ، وأصبحت الصحافة ووسائل نقل الأخبار المسموعة والمرئية من إذاعة وتلفزة - تعد الدبلوماسية بالمعلومات بكل ما يدور حوله في العالم شأنه في ذلك شأن حكومتها ذاتها . وأصبحت السرية التي تغلف العمل الدبلوماسي عملية مرحلية لا بد أن تعقبها المواقف العلنية المعلنة المكشوفة .

ولعل في تلك الأوراق الدبلوماسية ما يجد فيها القارئ مادة للتسلية أو التأمل ، أو إضافة لبعض الرغبات على صورة العمل الدبلوماسي كما ترتسم في مخيلته ، وأترك له في النهاية تكوين انطباعه عنها وتقييمه لها .
أود أن أنوه هنا بالمعونة الصادقة التي تلقيتها من كثير من الزملاء والأصدقاء ، وبصفة خاصة الدكتور محمد عمر مدني مدير عام معهد الدراسات الدبلوماسية بالرياض ، والتشجيع الذي لقيته من شريكة حياتي . كما أتقدم بالشكر والعرفان لمركز الأهرام للترجمة والنشر لإصدار الكتاب بهذه الصورة المشرفة .

والله ولي التوفيق .
شاطيء أبو ثلاث أستاذ دكتور بكلية الدراسات والبحوث
جمال بركات

الفصل الأول

الأيام الأولى

حفل القصر

كنت أشغل منصب السكرتير الثالث في السفارة المصرية بلندن عندما تلقيت في يونيو ١٩٥٢ دعوة لحضور حفل الشاي السنوي التقليدي الذي تقيمه الملكة في ذلك الشهر الذي يصادف عيد ميلادها وتدعو إليه رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدة في بريطانيا وعدد محدود من دبلوماسيي كل سفارة .

وقد سعدت بتلك الدعوة سعادة غامرة وأخذت أقرأ بطاقة الدعوة بإمعان فوجدت أن الزي المطلوب هو - بذلة الصباح ، "Morning Suit" أو البونجور - وطبعاً نظراً لحداثة عهدي في السلك الدبلوماسي لم يكن لدى تلك البذلة . كانت الوزارة تصرف لنا بذلة رسمية موشاة بالقصب . نذهب إلى أفخر التزيية الأجانب بالقاهرة ونفصل البذلة بخطاب رسمي من الوزارة . وكانت أشغال القصب على السترة تزداد على الصدر والأكمام حسب الدرجة الدبلوماسية ووفق رسومات محددة موجودة لدى التزيي - ولكن هذه البذلة لا تصلح وينبغي إرتداء البونجور (وقد ألغيت بعد قيام ثورة ١٩٥٢) .

وسألني زملائي القدامى بالسفارة عما سأفعل . قلت سأفصل بذلة جديدة في « سافيل رو » لحضور الحفل ، و « سافيل رو » هو الشارع الذي يوجد فيه أفخم وأغلى تزيية الإنجليز في الحي الغربي الراقي في لندن .

وسمع الحديث أحد أصدقائي من الزملاء الكبار ، فجاءني في مكتبي وأسر إلى أن تكاليف البذلة ستتجاوز ١٥٠ جنيهاً استرلينياً في ذلك الوقت ، أي أكبر من راتبى الشهري . وسوف تستخدم مرة واحدة في السنة . وأبقى لأخر الشهر بدون طعام . وقال أن هناك محلات متخصصة لتأجير مثل هذه الملابس الرسمية لمختلف المناسبات كالأفراح وغيرها ونصحني أن أجرب حظي .

في مطار القاهرة

في صيف ١٩٥٤ استدعاني السفير مدير الإدارة السياسية بوزارة الخارجية المصرية وأبلغني أن اثنين من زعماء المنطقة الشمالية في إحدى دول غرب أفريقيا الكبرى سيتوقفان بمطار القاهرة في طريق عودتهما من أداء فريضة الحج ، وأنني بوصفي رئيسا لقسم أفريقيا بالإدارة سوف أنوب عن الوزارة في استقبالهم والترحيب بهما في المطار - وكنت بدرجة سكرتير ثان .

وتقصيت الخبر للمزيد من المعلومات فعلمت أن الخبر جاءنا من مصادر خاصة ورئي عدم إيقاد مندوب من المراسم لأن ذلك البلد مازال تحت الحماية البريطانية . والمهم هو إظهار ترحيب مصر بهما أثناء مرورهما بها رغم عدم إخطارنا رسميا بذلك .

توجهت في سيارة إدارة المراسم إلى المطار في المساء قبل موعد وصول الطائرة بوقت كاف . وقابلت المسئولين بإدارة المطار والأمن ووجدت عددا كبيرا من الطلبة النيجريين الذين يدرسون بالأزهر الشريف وجلسنا جميعا في قاعة الانتظار - وكان المطار صغيرا - قبل إنشاء مطار القاهرة الدولي الحالي - وقد تجمع في ساحته الخارجية عدد كبير من الزوار في انتظار ذويهم . وقد أقامت الشرطة حواجز لكي لا يتدافع المستقبلون إلى أرض المطار .

وقبل موعد وصول الطائرة الخاصة المقلّة للضيّفين بقليل وصل مندوب من السفارة البريطانية في السيارة الرولز رويس الخاصة بالسفير - تعرفت عليه فأتضح أنه سكرتير ثالث بالسفارة وقد أوفده السفير لاستقبال الضيّفين ومصاحبتهما لدار سكن السفير لحين استئنافهما لرحلتهم .

جاءنا مندوب إدارة المطار منبئا بهبوط الطائرة ، فتوجهنا إلى الساحة الخارجية حتى نكون بانتظارهما عند مدرج الطائرة . وقد شققت طريقى بين الجموع الحاشدة ومعى مندوبون عن إدارة المطار وأمن المطار ، ومن خلفنا المندوب البريطاني والعشرات من المواطنين النيجريين ، وما أن عبرنا حاجز رجال الشرطة حتى قلت لهم : حوش يا عسكري - فنشط رجال الشرطة

وفعلا في المساء توجهت إلى أحد المحلات في « بيكر ستريت » فاستقبلني الموظف بالحل بيشاشة وقال : من أجل حفل الشاي ، قأجبت بالإيجاب . فأخذني إلى حيث الملابس والغرف المخصصة للخلع والقياس والمرايا على الجانبين . ففوجئت بوجود عدد كبير من الزبائن يسيرون بسرأويلهم في الطرقات يجربون المقاسات . وكأنما السلك الدبلوماسي بأسره قد جاء إلى المحل . وبعضهم يبدو من سنه أنهم سفراء أو على الأقل وزراء مفوضين .

وقد وجدت البذلة المناسبة مقاس بالضبط . واشتريت رباط العنق الرمادي والقفاز الأصفر ، ولكن المشكلة صادفتنا في القبعة العالية Top hat . فإن مقاس رأسي صغير ، ووجدنا من المتعذر الحصول عليه . وكان الحل لدى الموظف الذي استقبلني وعنى بي منذ البداية : فقال : من واقع علمه وخبرته أن القبعة لا تلبس في داخل القصر ، وإنما تحمل في اليد عند الدخول وتترك هي والقفاز في المدخل ، وإذا فيمكنني أن أخذ قبعة وإن كانت أكبر من مقاسي قليلا ، وأحملها في يدي بدلا من البحث في محلات القبعات المتخصصة وشراء واحدة جديدة ثمنها يتجاوز ٦٥ جنيهًا استرلينيا ، وهو ما كان .

وقد أخذت البذلة كأمانة وخرجت على أن أعيدها فور انتهاء الحفل وقد كلفني إيجارها ٢ جنيه .

كان الحفل مقاما بالحديقة الخلفية لقصر بكنجهام ووقفت الملكة إليزابيث الثانية في الشرفة المطلة على الحديقة حيث عزفت الموسيقى السلام الوطني . ثم نزلت مرورًا بالدبلوماسيين من كل صوب وحذب ، ومن كل لون وجنس . ثم اتخذت مكانها في منصة تكسوها مظلة ووقف بجوارها عميد السلك الدبلوماسي في بريطانيا وكان سفير المملكة العربية السعودية ، وحولها باقي السفراء تسلم عليهم وتتحدث معهم فردا فردا وبجوارها كبير البايوران ومدير المراسم الملكية .

وسألني زملائي في اليوم التالي عن الحفل فقلت كان رائعا ، وعن بذلة « سافيل رو » فقلت كانت ممتازة .

تحية البحرية

عندما أمم الرئيس جمال عبد الناصر شركة قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ كنت أعمل قنصلا عاما لمصر في حلب بسوريا - ففى عام ١٩٥٥ كلفت بفتح قنصلية مصرية عامة هناك ، واخترت لها مبنى مستقلا في حي « السبيل » وكان وقتها يقع على مشارف المدينة .

كانت فترة عصيبة ، ورئيس وزراء بريطانيا سير أنتوني إيدن يدير في الخفاء مع جى موليه رئيس وزراء فرنسا وبين جوريون رئيس وزراء إسرائيل عمليات عسكرية لاحتلال القنال .

وكانت سوريا حكومة وشعبا تتعاون مع مصر قلبا وقالباً ، والشعب السوري يتميز بالوعي والوطنية والعروبة - وقد ترددت في ذلك الوقت شائعات مؤداها أنه سوف يحدث إنزال لقوات أجنبية على شاطئ اللاذقية فقامت مصر من جانبها - بالتنسيق مع السلطات السورية - بإرسال قوات مصرية للتركيز في اللاذقية نقلتها وحدات من الأسطول المصري عادت إلى قواعدها في مصر .

ولما كانت اللاذقية تتبع القنصلية العامة في حلب ، فقد توجهت ليلا لاستقبالها حيث كان ملحقا العسكري في دمشق موجودا في الموقع كذلك .

وبعد أيام تقرر أن يتوجه طابور القوات البحرية بجنوده وكبار ضباطه إلى حلب الشهباء للقاء الجماهير ، وأبلغني المحافظ أن الاستقبال سيتم أمام « فندق بارون » في وسط المدينة . وفي نحو الساعة الحادية عشرة صباحا كانت مئات الآلاف من أبناء الشعب السوري قد تجمعت على جانبي شارع بارون والمنافذ المؤدية إليه . ووقفت إلى جوار المحافظ في شرفة الفندق ومن حولنا كبار الشخصيات العسكرية والقيادية في حلب ، وتقدم الطابور في تنظيم بديع وخطوة عسكرية منضبطة بملابسهم البحرية البيضاء ووقفوا أمام الشرفة وصعد كبار ضباطهم إلى الشرفة وأدوا التحية العسكرية للمحافظ وسلموا على ، وهنا التهبت مشاعر الجماهير بالهتافات والحماس .

وأرتجل المحافظ كلمة حماسية بليغة ، والقيت بدورى كلمة وطنية قوية -

يمنعون أيا من المستقبلين من العبور إلى أرض المطار وأخذوا يدفعون الناس للخلف .

أسرعت الخطى إلى الأمام وتاهت صرخات المبعوث البريطانى بالإنجليزية في محاولة لإختراق الصفوف ، ولكن العساكر لا يمكن التغايم معهم ، ولا يعرفون حتى العربية .

وتقدمت وصاقت الضيفين الكريمين ، ورحبت بهما باسم الحكومة المصرية وهنأتهما على حجتهما المبرور ، وأخذنا نسير نحو خمسين مترا في اتجاه المطار . وقرب الباب خرج المبعوث البريطانى من الزحام من وسط الجماهير وقدمته للضيفين الكبيرين .

جلسنا في قاعة الانتظار وقدمنا للضيوف المشروبات الغازية والمرطبات ، وأخذ الحاضرون يتحدثون معهم بلهجتهم الوطنية ، وأنا أهرأ راسي إيماء بموافقتي على ما يقولون والزميل البريطانى يماثلنى ماذا يقولون فأقول له : بعدين ، بعدين . وعندما استبد به القلق قلت له أنهم يتكلمون لغة « الهوسا » وأنهم يتحدثون عن دراستهم بالأزهر .

وبعد انتهاء مراسم الاستقبال تركت الضيفين مع مندوب السفارة لكي يركبوا معه للقاء السفير البريطانى في منزله .

ودارت الأيام وبعد ٢٢ سنة التقيت مع ذلك الشاب البريطانى - وكنت سفيراً لمصر في بغداد - وقد أصبح هو بدوره سفيراً لبريطانيا في البلد ذات عام ١٩٧٧ !

هذه اللقاءات بين الدبلوماسيين هي أمتع ما يصادفه المرء في الخدمة في السلك الدبلوماسي ، فأيما يذهب يتعرف على زملاء جدد ، ويقيم صداقات جديدة . ثم تفرق بينهم الأقدار ، وبعد مرور عدد من الأعوام - ربما عشر سنين أو أكثر يقابجا بأن يلتقوا مرة أخرى في بلد آخر .

كانت مظاهرة قومية رائعة انصهرت فيها المشاعر المصرية السورية - وكانت الممارسة الدبلوماسية قائمة على الدبلوماسية الشعبية واللقاءات الجماهيرية ، والخطب الوطنية طبعاً بتشجيع من السلطات الرسمية .

وبعد انتهاء الكلمات لاحظ المحافظ ان الجماهير مازالت تحيي وتصفق فتطلع حوله فوجد انه يقف بجوارنا في الشرفة المونولوجست المصري المعروف « شكوكو » ، وأنه يعمل إشارات بيديه وسط تهليل الجماهير . فقال المحافظ : شو العمى دول بيحيوا شكوكو ما بيحيونا .

وتحرك طابور البحرية عائداً إلى موقعه في اللاذقية .

إنجاز المهمة

عندما وجهت بريطانيا وفرتسا إنذارهما المعروف لمصر في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ وأعقب ذلك العمليات العسكرية اشتد حماس السوريين . وكانت سيارات الحكومة تمر في أحياء حلب تنقل للشعب آخر أنباء القتال عن طريق مكبرات الصوت وتذيع أخبار الانتصارات العربية وسط تصفيق الجماهير في الأماكن العامة !

اتصل بي في هذه الأثناء سفيرنا في دمشق ، وقال لي بهدوء ان لنا باخرة ركاب تجارية مصرية تتبع شركة بواخر البوستة الخديوية راسية حالياً في اللاذقية وقبطانها إنجليزي . وأضاف ان هذه الباخرة يجب ان تبقى في اللاذقية حتى تنتهي العمليات لأنها لو أبحرت الآن أغرقها الأساطيل المهاجمة لبحر سعيد ، أو أخذتها رهينة أو غنيمه حرب ، وشمئها أكثر من نصف مليون جنيه . المهم تصرف مع القبطان الإنجليزي وتخلص منه والسلام - وقد أصدرت السلطات المسؤولة في دمشق تعليماتها لمحافظ اللاذقية بما يلزم .

سافرت في الفجر بالسيارة إلى اللاذقية وعبرت نقاط التفتيش المقامة بالطريق بعد ان حظرت الحكومة السورية الانتقال للاذقية إلا بتصريح خاص . وتوجهت فور وصولي لمقابلة المسؤولين السوريين من مدنيين وعسكريين ... واتفقنا على تأمين نقل القبطان الإنجليزي إلى دمشق .

توجهت إلى الباخرة المصرية وبدأت بزيارة القبطان في غرفة قيادته وأقهرته أنه بالنظر لظروف العمليات العسكرية الجارية فإنه يخشى على حياته من البحارة المصريين وأنه تأمينا له تقرر سفره لدمشق ومنها للخارج ، وسوف تقوم سلطات الأمن السورية بذلك ، وأنها سترسل في استدعائه الآن ، وعليه ان يجمع أمتعته الشخصية .

وقد تفهم الموقف تماما وشكرني وتناولنا قهصين من البيرة ، وعلمت أنه بريطاني الجنسية وأن زوجته يونانية مقيمة بالاسكندرية ويود طمانتها والأطمئنان عليها ، فأخذت عنوانها منه لإجراء اللازم .

طلبت عقد اجتماع عام مع البحارة المصريين ، على ظهر الباخرة وقلت لهم أنه تقرر تنحية وترحيل القبطان البريطاني ، وأن يتولى الضابط الأول للباخرة سلطات القبطان بالنيابة ، وأند صدرت التعليمات بعدم مغادرة الباخرة للاذقية وأن لا تتحرك إلا بتعليمات من السفارة المصرية في دمشق . وأن من يرغب في العودة إلى مصر فيتقدم بطلبه للضابط الأول ، وستقوم السلطات السورية بنقله إلى دمشق تمهيدا لعودته للوطن .

كان شعور الجميع حماسيا . يستفسرون عن الأوضاع والأخبار وعائلاتهم ومعظمهم بالاسكندرية ، وأبدى عدد منهم الرقبة في العودة .

في هذه الأثناء قدم مندوبون عن السلطات السورية واصطحبوا القبطان البريطاني . ولحقت بهم في قيادة الموقع حيث توليت الترجمة لأنهم لا يجيدون سوى الفرنسية . ولا يتكلمون الإنجليزية .

وبعد الظهر عدت إلى حلب . واتصلت بالسفير في دمشق وقلت له تم إنجاز المهمة وطلبت إبلاغ الشكر للسلطات المصرية على صادق تعاونها .

وعندما رجعت لحلب وجدت رسالة من القنصل الأمريكي بحلب فاتصلت به مستفسرا . فقال أن سلطات الأمن السورية قد قبضت في اللاذقية على مساعده نائب القنصل ومعه المترجم وهو سوري الجنسية ، وأنه لا يعرف السبب ورجاني بوصفي عميد السلك القنصل أن أساعده في الإفراج عنها .

اتصلت بالجهات السورية المسئولة بحلب فقالوا لي ان قوات الامن ضبطت نائب القنصل وكاتباً بالقنصلية يتجنسون باللاذقية ويحاولون التقاط صور للعيناء وللقوات السورية والمصرية وأنه بعد إجراء التحقيق سيتم الإفراج عن الأمريكي . واستأذنتهم في إبلاغ ذلك الرب للقنصل الأمريكي فوافقوا .

أبلغت القنصل الأمريكي رد السلطات السورية فأنكر بطبيعة الحال واقعة التجسس وقال ان زميله جديد ، وله مصالح يود قضاءها في اللاذقية ، وأنهم لو أرادوا التجسس لطرق أخرى أكثر حرصاً ودهاء . وفي اليوم التالي عاد نائبه إلى حلب أما كاتب القنصلية السوري فقد دخل إلى سجن المرة في الشام .

وقد توثقت المعرفة والصداقة بيني وبين القنصل الأمريكي روي اثرتون منذ ذلك الوقت . والتقينا بعد ذلك في واشنطن عام ١٩٥٩ عندما كنت مستشاراً لسفارة الجمهورية العربية المتحدة ، وهو رئيس لأحد أقسام الشرق الأوسط بالخارجية الأمريكية . والتقينا بعد ذلك في أكثر من مناسبة حتى أصبح سفيراً لبلده في القاهرة في أوائل الثمانينات .

وفي حلب طبقة تشيطة من التجار ورجال المال والأعمال المسلمين والمسيحيين يمتلكون المعامل الوطنية (المصانع) وعدد من العائلات الموسرة من كبار ملاك الأراضي في البادية السورية تزرع زراعة خطيفة ، وهم خليط من البركس والأتراك وأهل حلب والشام . وبعض التجار المسيحيين يشغل مناصب ففاضل فخريين لبعض الدول الأجنبية

كانت فترة عمل في حلب فترة عمل دبلوماسية غير تقليدية . وكانت حلب مركز الثقل في الأحزاب السياسية السورية ويقع فيها زعمائها وقادتها من الفطاحل من الأحزاب المحافظة : الحزب الوطني وحزب الشعب . د . عبد الرحمن الكيالي ، رشدي الكخيا ، ناظم القدسي . وإلى جوارهم يوجد حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يحاول أن يسيطر على الشارع السياسي

يقوده في حلب من الشباب مجد الفتح زلط وأديب نحوي ، ثم الإخوان المسلمين بقيادة معروف الدواليبي .

كانت حلب تموج في تلك الفترة من ٥٥ إلى ١٩٥٨ بالمشاعر الحماسية الوطنية الدافقة والمظاهرات تزحف على القنصلية المصرية في المساء مظالبة بشعارات الوحدة والعروبة .

وعندما زار الرئيس الراحل أنور السادات حلب عام ١٩٥٧ ، وكان آنذاك رئيساً لمجلس الأمة المصري على رأس وفد من المجلس يضم المرحوم مؤاد نجيب الدين وغيره تأخر زكبة في الوصول وغربت الشمس فاستقبلته الآلاف المؤلفة من الجماهير على مشارف المدينة بمظاهرة كبرى من حملة المشاعل ورفعت سيارته من فوق الأرض رفعا فخل وعانق مستقبليه وبهر من روعة الاستقبال .

وعندما قدم عبد الناصر لأول مرة إلى حلب في فبراير ١٩٥٨ عقب إعلان الوحدة بين مصر وسوريا شذفت الجماهير على فصر المحافظة حيث كان يقيم . ولكن لوحظ أن الساحة المواجهة للقصر لا تكفي للأعداد الهائلة من المواطنين من حلب والاقضية المجاورة التي قدمت لاستقباله فانتقل إلى موقع آخر له شرفة تطل على ساحة فضاء كبيرة ليخاطب الجماهير .

وعندما أجريت الانتخابات للوحدة في حلب توجهت للنزول على بعض صناديق الاقتراع وخاصة في حي الأيمن فوجدت حماساً منقطع النظير للإفراع للوحدة وعبد الناصر وأصروا في كل موقع اقتراع على أن أدلي بصوتي قائلين لو كنت بمصر لكنت مارست حقلك الانتخابي .

وهكذا كما أنشأت القنصلية المصرية العامة في حلب عام ١٩٥٥ قمت بإغلاقها عقب إعلان الوحدة في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ وغادرتها إلى موقع آخر .

وهي من الحالات النادرة في العلاقات الدولية التي يتولى فيها نفس الشخص إنشاء تمثيل قنصل ، وإنهائه .

في واشنطن

في يونية ١٩٥٨ وصل واشنطن طاقم جديد للعاملين بالسفارة ابتداء بالسفير ، وذلك بعد الوحدة الاندماجية مع سوريا . وأصبحت السفارة تسمى « سفارة الجمهورية العربية المتحدة » .

كانت تجربة رائدة في العمل الدبلوماسي . فالسفير مصري . وزيران مقوضان أحدهما سوري والآخر مصري ، وثلاثة مستشارين واحد سوري واثنان مصريان وهكذا . وأصبح المبنى المحق بدار سكن السفير - السفارة المصرية (السابقة) - وهي من معالم واشنطن - هو القسم السياسي للسفارة . وأصبحت السفارة السورية السابقة مكتب المستشار الثقافي . فضلا عن ثلاثة مبان أخرى للمكتب العسكري (مصري) والمستشار التجاري والمحقق الصحفي .

وكان السفير غير معزول . وكذلك الوزير المفوض السوري . وكنت أشغل منصب المستشار الثاني السياسي للسفارة .

استأجرت منزلا في حي « تشيفي تشيس » السكني الهادئ والقريب من العمل مكونا من دورين وحديقة خلفية وقمت بتأثيثه . وهذه الأمور ميسرة في أمريكا بشكل مدهل - كل شيء موجود بوفرة والدفع فوري أو بالتقسيط .

أما زيجتي المستشار السوري فقد علمت أنه اشترى شقة بالتقسيط وأنه سوف يبيعها عند نقله ويربح فيها نظرا للارتفاع المضطرب في أسعار العقارات .

أدخلت تليفونا بالمنزل دون أي انتظار كما يحدث عادة في الدول المتخلفة . واشترت سيارة مستعملة حين ظهر الموديلات الجديدة بعد بضعة شهور . لأنه بدون سيارة لا تستطيع التحرك . والمجتمع الأمريكي قائم كله على السيارة : إنتاجا وتوزيعا ومحطات بتروول وإصلاح وأسواق لجر السيارة عند تعطلها . ومساحات هائلة لبيع السيارات المستعملة ومحلات قطع الغيار .

ولابد للسيارات من شبكة طرق معقدة لا تفيقها موانع تخضعها الكبارى والجسور والأنفاق . وطرق سريعة مختصرة طرؤض عليها رسوم مرور .

وعلى جانبي الطرق تقوم صناعة ضخمة للموتيلات ، وهي الفنادق الصغيرة التي تعتمد على زبائن الطريق بسيارتهم تجدها على امتداد الطرق وعلى الشواطئ الطويلة والأماكن السياحية المناثرة عبر القارة الأمريكية . ثم هناك المطاعم المتنوعة على طول الطرق وعرضها لخدمة المسافرين .

وأذكر أنه عندما زار خورشوف واشنطن عام ١٩٥٩ ذهبل من العدد الهائل من السيارات الفارهة التي يركبها الموظفون في طريقهم إلى عملهم إلى دوائر الحكومة الاتحادية والكاينثول ، كل فرد وحده في السيارة وقدر أغلقها مستمعاً بالإذاعة والتلفيف . واقترح خورشوف تخصيص أوتوبيسات لجميع أفراد كل مصلحة أو مؤسسة وتوفير الزحام واستهلاك الطاقة . ولكن قيل له أن هذا هو أسلوب الحياة في أمريكا ، والمواطن الأمريكي يود أن يكون حراً في حركته وانتقاله .

ومع كل هذه الأعداد الهائلة من السيارات خصوصاً في أوقات الذروة ، في الصباح وبعد الظهر تجد انضباطاً وانسياباً في حركة المرور . ويتحول بعض السيارات في الطرق الكري إلى اتجاهات مغايرة فترداد في التوجه إلى داخل المدينة أو إلى خارجها حسب أوقات دوام العاملين أو انصرافهم ، وهو أمر يحتاج ليقظة دائية ومنايعة لإرشادات المرور . وقد وجدت نفسي مرة أسوق سيارتي ضد إتجاه المرور لجهل بهذه التغييرات .

توجهنا مرة بالسيارة إلى نيويورك وكان يقودها زميلي من المكتب العسكري بالسفارة وبعد بلتيمور يظهر أننا فقدنا إحدى الإشارات ووجدنا أنفسنا نسير في الاتجاه المضاد ولابد من الاستدارة - وعن لصديقي أن أسهل طريقة - لكي لا تضل الطريق - أن نعبّر الجزيرة في وسط الطريق ونواصل السفر - فبعلا استدار بسرعة للعبور إلى الجانب الآخر من الطريق السريع . وكان شاعراً . وإذا بالسيارة تغرز بنا فجأة ولا سبيل لنا إلى الحراك . وما هي إلا دقائق حتى جاءت سيارة شرطة المرور ودهش ضابط المرور كيف أوصلنا أنفسنا لهذا الوضع . فشرحن له أننا مسافرون في مهمة عاجلة لنيويورك

وتتجنبنا الطريق وأبدتنا أسلطنا الشديد . وكان خازنا في أن الخروج عن الطريق بهذا الشكل يعتبر مخالفة ضرورية . ولكنه قدر ظروفنا - ولعله راعى كذلك اللوحة المعدنية الدبلوماسية . وأخذنا لأقرب محطة إصلاح سيارات على بعد بضعة كيلومترات . فقام معنا عامل بسيارة مقطورة إلى موقع السيارة وأنتشلها من الحفرة .

وفي هذه الأثناء أردنا أن نتصل بتيويورك تليفونيا فوجدنا على جانب الطريق عدد من التليفونات العامة . واتصلنا هاتليا في ثوان بتيويورك وقلنا لهم أننا ستأخر بعض الشيء .

هذه الخدمات الميسرة في كل مكان في الطريق في أماكن تبدو مقطوعة في عنوان الحضارة والتقدم التكنولوجي المذهل في أمريكا

العمل الدبلوماسي في واشنطن مدرسة - فالشباب الذي يرغب في الدراسة الأكاديمية لما بعد البكالوريوس في غير مواعيد العمل بالبحث لديه خمس جامعات للالتحاق بإحداها . والدبلوماسي في بلد فيها أكثر من مائة وثلاثين بعثة دبلوماسية (عدد دول العالم الآن ١٥٩) أي نحو ٢٠ ألف دبلوماسي (بعائلاتهم) هو كالمسكة في المحيط ولديه صحف يومية وأسبوعية ومجلات أسبوعية ودورية لو أراد متابعتها لما وجد وقتا كافيا لجرد قراءة العناوين .

وذكر أنني اشتركت في نيويورك تايمز الأسبوعية . ووجدت أن العدد الأسبوعي لا يحتاج لعطلة نهاية الأسبوع فقط لتصفحه بل للأسبوع بأكمله . وبعد بضعة شهور تكسبت الأعداد لدرجة أننا اتصلنا بشركة نظافة للحضور لنقلها من المنزل على نفقتنا . وفي الدول المختلفة تباع الصحف القديمة بالوزن بالكيلو .

أما التليفزيون اللون والمادة الموعة التي يعرضها على مختلف القنوات فلا يعطيك وفقا لكى تقرأ شيئا بالمنزل وهو متعة مستمرة يصعب مقاومتها .

وذكر أننا دعينا مرة على العشاء لدى بعض الأصدقاء الأمريكيين وعندما وصلنا في الموعد لم نجد أحدا بانتظارنا . ووجدنا لافتة على الباب

الخارجي تقول : ادخلوا أننا نتابع مباراة - فوت بول - (الأمريكية) بجوار التليفزيون .

ولم نشعر أنا وعائلتي بالقرية خلال سنوات إقامتنا الثلاث في واشنطن فلقد نجحت الولايات المتحدة بحكم تكوينها السكاني المنفرد في أن ينصهر كل من يسوطنها في البوتقة الأمريكية ويأخذ نفس العادات والسلوك والتفكير وأسلوب الحياة ويغمر بأنه مواطن أمريكي - وهو أمر شاهده على امتداد القارة الأمريكية شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا مع فوارق طبيعية بين التجمعات السكانية

وكان أفضل أصدقائنا الأمريكيين بعضهم من اليهود - وجيراننا الملاحون كانوا عائلة يهودية - طبيب أسنان يفتش الشورام وكان يهودي التصوير الفوتوغرافي فأخذ للأولاد صورا فوتوغرافية كثيرة ملونة وكبرها مازلتا نحفظ بها . وكانت زوجته تخرج مع زوجتى وتدلها على أفضل المشتريات وأرضها وعندما خرجت ابنتى الصغيرة أثناء اللعب أمام المنزل سارعت في نقلها بغربة الأسعاف إلى مستشفى جورج تاون الجامعي .

وعندما فقلت ذهبت قبل سفرى لدى حلافى المفضل وقلت له أنني سأترك الولايات المتحدة - فدعش الرجل - وكان يثنى أنني أمريكيا . وقال ولكلك تتكلم الإنجليزية بطلاقة - ذلك أن بعض الأمريكيين حديثي التمس لفتهم - الأمريكية - محدودة - وعرض على خدمته بحرارة لمساعدتى لدى إدارة الهجرة للحصول على الجنسية الأمريكية !



عاصرت فترة الرئيس الأمريكى ايزنهاور وبداية مدة الرئيس كيندى . والولايات المتحدة كدولة عظمى كيان سياسى ضخم . ومن الظلم لحيلفاتها الأوربيين قياسها بهم لا من ناحية عدد السكان (٢٠٠ مليون نسمة) ولا الثروة ولا التقدم التكنولوجي . ولا الطرق والمواصلات والمسابقات الشاسعة . هي قارة بأسرها .

والإدارة الأمريكية تضم إلى جوار الرئيس المشي وجهازه بالبيت

الأبيض مجموعة من مراكز السلطة والقوى لتسيير دفة هذا الجهاز الضخم من وزارة مدنية ومؤسسة عسكرية (البنتاجون) وأجهزة الأمن القومية . وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي . ويقوم نظام الحكم على مجموعة من التوازنات بين سلطات الرئيس الأمريكي والكونجرس (مجلس الشيوخ والنواب) والسلطة القضائية (المحكمة العليا ونوابها) ثم هناك الولايات (٥١ ولاية) وحكامها ومجالسها المحلية المنتخبة وتشريعاتها الخاصة بها . وهناك العديد من المؤسسات وقوى الضغط المتمثلة في أصحاب الصناعات الكبرى ، ورجال المال والأعمال ، وكبار الزواج واتحاد نقابات العمال والصحافة والإعلام ، واللوبي اليهودي ، والأقلية السوداء .

فالمجتمع متشعب وإيقاع الحياة فيه سريع ، ولكن سببه انظره هي الحرية ، ومع هذه الحرية فإن رقابة السلطة موجودة ، ولكن بطريقة غير معسوسة .

وأصعب مشكلة واجهتنا في العلاقات الثنائية هي أزمة الباخرة كليبواترا . ففي ١٢ أبريل ١٩٦٠ أبلغتنا الخارجية الأمريكية أن عمال ميناء نيويورك يرفضون تفريغ شحنة الباخرة كليبواترا بناء على قرار الاتحاد الدولي لتفكيكات عمال الشحن والتفريغ والاتحاد الدولي لعمال الموانئ في نيويورك . علما بأن الباخرة تابعة لشركة نواخر البوستر الخديوية ، وتتمتع بجنسية الجمهورية العربية المتحدة .

وقد أوضحنا للجانب الأمريكي أن هذه المقاطعة سوف يترتب عليها أضرار بالغة للشركة ، ويمكن أن تتطور المسألة لتصبح أزمة في العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر والعالم العربي . وأن السبيل إلى تفادي ذلك هو تدخل الحكومة الأمريكية لإنهاء الأضرار . وأن لدى الرئيس الأمريكي الصلاحيات القانونية لمثل هذا التدخل .

وكانت وجهة النظر الأمريكية أن أمر إنهاء المقاطعة مقروض على المحكمة الفيدرالية بنيويورك في ٢٢ أبريل وأنه ينبغي الانتظار لحين صدور حكم القضاء .

وقد توجهت إلى نيويورك لسماع حكم المحكمة الذي صدر برفضها طلب الشركة إلزام العمال بتفريغ السفينة باعتبار أن القضية هي من قبيل المنازعات العمالية .

وذهبت إلى حيث ترسو الباخرة فوجدت اثنين من العمال يصلان لافتات بالمقاطعة ويسيران في تراح أمام الباخرة . وقيل أن هذا يشكل حسب التقاليد العمالية خطأ وعملا فائما لا يجوز اختراقه !

وأخذت الأزمة في التصاعد . وبدأ الاتحاد الدولي للعمال العرب في تعبئة الشعور ضد الولايات المتحدة . وأعلن الرئيس عبد الناصر أن العمال العرب يخطرون إلى الحادث على أنه إجراء عدائي ضد وطنهم له أساس بمصالحه وكرامته . وكانت لخطب عبد الناصر أصداها القوية في ذلك الوقت في أنحاء العالم العربي .

ويظهر اتجاه من جانب عمال الميناء الزنج لتحدى خط الشح وتفريغ الباخرة بالقوة .

وقرر اتحاد العمال العرب مقاطعة السفن الأمريكية في جميع الموانئ العربية اعتبارا من منتصف ليل ٢٩ أبريل . وإزاء هذا التهديد وإزدياد الشعور العدائي لأمريكا وخشية الإضرار بالمصالح الأمريكية دخلت الحكومة الأمريكية وأنعت المقاطعة .

ويبدو أن الهدف من المقاطعة كان محاولة التأثير على موقف الجمهورية العربية المتحدة من مرور السفن والبضائع الإسرائيلية في قناة السويس .

وقد توجهت مرة أخرى إلى نيويورك وصعدت إلى الباخرة كليبواترا ونقلت لبحارتها وطاقمها وريائها تحية الحكومة بمناسبة انتهاء المقاطعة .

وهكذا تم اختواء الأزمة ومرورها بسلام



وقد أقيمت العديد من المحاضرات في كثير من الجامعات والنوادي

والؤسسات العسكرية حول مشكلة الشرق الأوسط . وفي أجازتها في يونية ١٩٦٠ سالتني مجموعة متخصصة في دراسات الشرق الأوسط عما سيكون عليه موقف مصر لو انفصلت سوريا (وهم يعلمون انني مصري قادم من سوريا) وكان يدري ان الوحدة تمت بالإرادة الحرة للشعبين السوري والمصري . ولن يتعرض مصر لو تم الانفصال بنفس الأسلوب الديمقراطي .

ولا يخفى على القارئ ان الانفصال بين مصر وسوريا تم في سبتمبر ١٩٦١ . اما اسبابه ودوافعه فليس مجال شرحه في هذه الأوراق المثابرة .

بقى ان أشير إلى ان الرئيس جمال عبد الناصر قدم إلى نيويورك لحضور دورة الأمم المتحدة الشهيرة التي حضرها كذلك الزعيم السوفيتي خروشوف .

وقد توجهت بصحبة سفيرتنا بواشنطن إلى نيويورك لتكون قريبين من الرئيس ، ولزنا في فندق الوندورف استوريا .

وكان مدير مكتب الرئيس . والمراهق من سكرتاريته الخاصة قد قدموا قبلها إلى نيويورك ، وقاموا بمعاونة السلطات الأمريكية باستئجار فيلا خارج المدينة لإقامة السيد الرئيس . وقد توجهت لرؤية الفيلا وكانت مناسبة من كافة نواحي الراحة ووجود صالة مناسبة لعرض الأفلام في عروض خاصة في المساء استجابة لهواية الرئيس . كما توجد أماكن في الحديقة لإقامة أفراد الأمن والحراسة الخاصة .

وكان الرئيس يجري مقابلاته في مقر مكتب وقد حضر الدائم لدى الأمم المتحدة . وقد قدم إلى نيويورك عدد من معاونيه في مقدمتهم المشير عبد الحكيم عامر . والاستاذ حسين فيكل .

ولعل أهم لقاءاته كانت مقابلة مع الرئيس الأمريكي ايزنهاور .

وتقرر لأسباب أمنية أن يتولى قيادة سيارة الرئيس الكاديلاك الفارمة سكرتير أول بمكتبنا بنيويورك من اكفأ العناصر المؤتوق بها .

والمعروف ان في تلك الدورة خلع خروشوف حذاءه أثناء مداولات

الجمعية العامة ووضعه إلى جواره من قبيل الامتحان مما كان له مردود إعلامي مضاد له .

والواقع ان بعض الدول الكبرى تعامل الأمم المتحدة وبعض أجهزتها بنفس الأسلوب . ولكن بدون حاجة لخلع الحذاء .

وبنهاية عام ١٩٦٠ غادرت وعائلتي نيويورك بالباخرة في رحلة ممتعة استغرقت ثلاثة أسابيع كانت بمثابة إجازة لي حيث لم أحصل على إجازة طوال مدة خدمتي بواشنطن التي كانت فرصة عظيمة للتعلم والاستفادة والاستزادة .

الفصل العشاني

في أفريقيا

فتيات ، جيشا ، اثيوبية

على أثر توقيع الملوك والرؤساء الأفارقة على عيثاق منظمة الوحدة الأفريقية في أديس أبابا في ٢٥ مايو ١٩٦٢ كلفنا بالسفر إلى أديس ضمن لجنة من الخبراء ، لتقرر تشكيلها من خمس دول أحدها من شرق أفريقيا ، وثلاث من غرب أفريقيا . اشتان تنكلمان الانجليزية والثالثة تنكلم الفرنسية إضافة إلى مصر ودولة المقر اثيوبيا

كانت مهمة اللجنة وضع لائحة الاجراءات وتنظيم الامانة العامة للمنظمة . وتقدمت اللجنة في اعمالها وابدأت في طرح الأفكار التنفيذية وصياغتها . كانت أكثر المعارضة تأتي من ممثل دولة في غرب أفريقيا كان يشغل منصب مندوبها السامي في بريطانيا . وقد تدبر معنا في هذه اللجنة . وكان جهد كبير يبذل ووقت طويل يضيع في محاولات التوفيق بينه وبين ممثلي الجانب الاثيوبي

ومعد بضعة أسابيع دعينا لمائدة عشاء رسمية وطنية من جانب الدولة المضيفة . وكانت قائمة الطعام تضم لحم نيتة وبعض الخضروات المحشية . وقد أحاط بنا عدد من الفتيات الحبشيات اللواتي بملابسهن البيضاء التقليدية لمساعدتنا على تناول الطعام ومن قبل فتح الشهية

وجاءت إلى إحداهن وجلست إلى حواري وأخذت شريحة من اللحم النيء وغلفتها بقطعة من الخبز الأسمر الأسفلحي الشكل وطمستها في وعاء من صلصة الشطة وأرادت أن تجلسها في غمى مستخدمة أظافرهما الجميلة الطويلة المصبوغة بطلاء أبيض . ولكنني اعتذرت لها بأن معدني حساسة ، ولا يمكن بحال أكل هذه التوليفة من اللحم النيء والشطة . لقد حررت في السابق الكبة اللبنانية المغمومة من اللحم النيء ولكن هذا أقصى ما استطعته . ونهجت في نقل خدمات هتاة ، الجيشاء ، على الطريقة الاثيوبية إلى جاري صديقي من شرق أفريقيا الذي رحب بها . وكان ايجابيا معها على طول الخط

وقد أخذ المضيف الاثيوبي يشرح لي الخلفية التاريخية وراء أكل اللحم نيئا . فقال إنه في العصور الوسطى أيام الامبراطور سنليك الاول كانت هجمات

المسلمين لا تتقطع على معسكرات القوات الحيشية ، وكان المسلمون ينجحون في مفاجأة الأحباش ويوقعون بهم أقداح الخسائر . وقد تحرى الامبراطور الأسباب فتوصل إلى أن المسلمين يتعرفون على مواقع المعسكرات من دخان طهي اللحوم فأصدر أوامره بعدم إيقاد النار وأكل اللحوم نيئة . وهكذا تعذر على المسلمين مباغتتهم بالهجوم . وعندما أرسلوا كشافاتهم لمعسكرات الأحباش وجدهم يأكلون اللحوم نيئة فارتاعوا وظنوا أنهم يأكلون لحوم البشر من أعدائهم ولأدوا بالفرار وحافظت أثيوبيا على استقلالها من الغزاة .

ثم أدبرت كؤوس من الشراب الوطني اسمه توج . وعندما استقرت عما إذا كان مشروبيا كحوليا اتضح أنه مخمر من عسل النحل ، وإن تأثيره قوى بحيث يكفى تناول قدحان منه للعودة إلى الفقدان إما مستودا . أو محمولا . وقيل أن المناحل منتشرة لديهم وخلايا النحل موجودة بكثرة في المناطق الغنية بالأعشاب والزهور البرية . وأن المشروبات الروحية تستخرج في كل بلد من الخامات أو المزروعات المحلية الوفيرة . ففي أوغندا يقطر ، الورجي ، من الخبز المخمر ، والسناكي مشروب البايان الوطني يستخرج من الأرز . وفي العراق العرقى من البلح حيث تكثر أشجار النخيل ، وفي السودان ، البوطة ، من الذرة العويجة ، وفي لبنان العرقى من العنب . وفي أمريكا الوسطى الروم ، عسل قصب السكر المخمر ، وفي اسكتلندا الويسكى من الشوفان ، وفي الاتحاد السوفيتي الفودكا من القمح ، وفي فرنسا الشمبانيا من العنب من المقاطعة المعروفة بنفس الاسم في شمال شرق فرنسا الشهيرة بنبعها .

وعندما اجتمعت اللجنة في اليوم التالي لم تخف معارضة زميلنا المندوب السامي فعال على صديقي من شرق أفريقيا وقال : يظهر أن الأكلة منفعتني .

كان قد مر على اجتماعاتنا نحو شهرين حينما تلقينا دعوة للقاء الامبراطور في مكتبه بالقصر . وكان يتريد أن الامبراطور شخصيا يتابع أعمال اللجنة لأنه يود أن يثبت المقر في اديس ابابا ، وأنه قد شرع بأحد المباني الحكومية الحديثة كمقر مؤقت للسكيتارية نجتمع فيه .

عندما توجهنا في الصباح إلى القصر الامبراطوري أحكمنا إغلاق ابواب

السيارات حيث كان الأسد الشهير يشجول طليقا في حدائق القصر لكنه كان انسيه ما يكون بأسود السيرك المدربة .

كان الامبراطور ، هيلاسيلاسي ، واقفا عند مكتبه بجسمه الضئيل يستقبلنا ويصافحنا . وألقى كلمة ترحيب وتشجيع باللغة الامهرية ، كان يتولى ترقيفتها أولا بأول كبير الباوران . وفي أثناء القائه الكلمة وجدنا شيئا صغيرا يجري بيننا ومقفر على المكتب ، واتضح أنه كلبه المفضل من نوع نابو أشبه بالظبي أو الغزال الصغير . وانفجر الأعضاء بالضحك لهذه المفاجأة . والملاحظ أن عمل مع الأفريقيين أنهم قوم بسطاء يضحكون لأتفه الأسباب .

وعندما انتهى الامبراطور من كلمته أتوى المندوب السامي برد نيابة عنا ، وتوجست أن يلح إلى بعض الخلافات في الرأي في أعمال اللجنة ، ولكنه أخذ يشيد ويكيل المدح للأثيوبيين ، ويمجد الامبراطور رمز أفريقيا . الخ .

وانصرفنا بعد هذا اللقاء الموفق . وجامي زميلي من شرق أفريقيا متسما بشجاعة ذات مغزى وقال : لا بد أن شيئا ما حصل الليلة الماضية مع المندوب السامي .

نسيت أن أقول أنني عندما ذهبت لأوغندا بعد عام تقريبا وجدته ورعا للنجاة .

انضمينا في اديس ابابا نحو ستة شهور انهيانا خلالها أعمالنا بصباح وقد عرض بعد ذلك مشروع لائحة الاجراءات في اجتماع وزراء خارجية الدول الأفريقية الذي حضرته في لاجوس في فبراير ١٩٦٤ لاتقاربه .

كانت اديس ابابا في ذلك الوقت تتوسع عمرانيا وقد شيدت فيها ، قاعة أفريقيا ، تلك التحفة المعمارية الرائعة ، وقد الحق بها مكاتب اللجنة الاقتصادية لأفريقيا التابعة للأمم المتحدة ومكتبة حديثة . ويظهر فيها عدد من فنادق الدرجة الأولى الفخمة .

وكانت أثيوبيا مجال منافسة وصراع ايديولوجي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي . فالولايات المتحدة لديها جهاز دبلوماسي قوى . وعدد كبير من الخبراء وقاعدة عسكرية بحرية ضخمة في اسعرة ، والاتحاد

السوفيتي له سفارة كبيرة ومستشفى تخصصي متقدم يتردد عليه المئات من الأماهي يوميا وأفكاره تتسرب للشباب في الجامعة والقوات المسلحة .

أما الإمبراطور فكان يفضل في التعامل الدول الإسكندنافية الصغيرة التي ليس لها مطامع ويعهد إليها بمشروعات البنية الأساسية في بلده .

أما الشعب فكان يجمع بين البهجة والتدين . وقد حضرنا احتفالا دينيا كبيرا في ساحة واسعة يتزعمه القساوسة من الرهبان المسيحيين الأرثوذكس والمعروف أنهم كانوا يتبعون الكنيسة القبطية المصرية وبابا الاسكندرية لعدة قرون إلى أن استقلوا عنها أخيرا . وفي المساء يرقصون في النوادي والفنادق .

وقد شعرنا آنذاك أن اللجنة الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة يسودها القلق من جراء قيام لجنة اقتصادية معادلة ضمن إطار منظمة الوحدة الأفريقية . مما سيترتب عليه القضاء على لجنة الأمم المتحدة وأخذوا يهتفون أذهانهم للرحيل .

والآن بعد ٢٢ سنة بقيت اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة وتقلصت اللجنة الاقتصادية بالمنظمة الأفريقية وأصبحت لجنة اقتصادية اجتماعية . ولجنة الأمم المتحدة تضم مجموعة من الخبراء بعضهم غربيين عن الأوضاع الأفريقية يعضون عدة سنوات في التعرف على مشاكل القارة ، ويضعون الدراسات والتقارير النظرية المطولة التي لا تقرأ . ومن باب أولى لا تطبق . فمع كل جهود اللجنة مازالت الأوضاع الاقتصادية في أفريقيا تتدهر ويظل شبح الفقر المدقع والمجاعة من بلد لآخر وأولها إثيوبيا ذاتها .

هذه اللجنة تمثل نموذجاً للفاقد الذي تعانيه المنظمة الدولية ويسبب عجزاً دائماً في ميزانيتها وأولى بالأمم المتحدة أن توفر الرواتب التي تدفعها للجنة وتلغيتها كلية في مقابل تنشيط لجنة أهل القارة في المنظمة الأفريقية .

إن ما تحتاجه أفريقيا ليس لجاناً أكاديمية ، وإنما هو التدريب العملي والمزارع التجريبية ورأس المال والإرشاد الزراعي ومكافحة الآفات .

وقد زرت أديس أبابا في مهمة في عام ١٩٦٨ فوجدتها تتقدم حضارياً وقد تضاعف عدد السفارات المعتمدة لديها لوجود مقر منظمة الوحدة الأفريقية

بها ، وأنشئ مطار حديث وشقت طرق فسحة تظللها أشجار الكافور الباسقة ذات الأوراق الفضية والمستديرة من البرازيل . وإن بقيت الأكواخ المغطاة بالألواح الصفائح جنياً إلى جنب مع النفايات الحديثة الشاهقة .

والآن في عام ١٩٨٦ تغيرت الأوضاع جذرياً واختفى الإمبراطور وما يمثله . وبقي التساؤل هل الشعب الإثيوبي في ظل النظام الجديد أحسن حالاً مما كان عليه من ربع قرن ؟ هل أصبح أكثر ازدهاراً اقتصادياً وأكثر تمتعاً بالحرية وبحقوق الإنسان عما كان عليه في السابق ؟

أوراق الاعتماد

في أواخر عام ١٩٦٢ علمت من وكيل وزارة الخارجية أنني مرشح لأكون أول سفير بصر في أوغندا وظللت حتى أن أبدأ في الاستعداد للتنفيذ .

والواقع أن أوغندا لم تكن غريبة علي فقد سبق لي أن زرتها ضمن وفد وزارة الري المصرية لحضور احتفالات خزان أوين عند مخرج بحيرة فيكتوريا في مدينة « جنجا » والذي افتتحته الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا عام ١٩٥٤ . وكان الهدف من بناء الخزان توليد الكهرباء لتغذية مناطق شاسعة بالطاقة و كل من أوغندا وكينيا ، وتخزين المياه في بحيرة فيكتوريا لاستخدامها من جانب مصر والسودان في وقت التصاريق وساهمت مصر بمليون جنيه ضمن نفقات البناء .

بهرقني أوغندا عند زيارتي الأولى لها بجمالها الطبيعي وخضرتها الزاهية مرتفعات وهضاب ، ولكن ليس الارتفاع المذهق مثل أديس أبابا ، ومناخ معتدل طوال العام مع أمطار موسمية . لا تحتاج لتكييف تيزيدا أو شقة - بل ربيع دائم طوال العام - قهقري بحق كما وصفها وتستون تشوشيل « لؤلؤة أودية أفريقيا » .

وكما هي العادة في مثل هذه الأحوال يبدأ السفير بالتوجه لإدارة المراسم

وزارة خارجيته للحصول على أوراق الاعتماد الموجبة من رئيس دولته لتقديمها لرئيس الدولة الموفد إليها . وتشير عادة إلى الرغبة في توثيق عرى الصداقة القائمة بين البلدين ، وأن الاختيار قد وقع على شخص السفير بعينه من ثقة في أخلاصه وصفاته وقدراته مما يجعله على ثقة أيضا في نجاحه في المهمة التي عهد إليه بها . وأن رئيس الدولة الموفدة يرجو أن يمنح سفيره المساعدة ، وأن تضفي عليه الرعاية . وأن تتقبل منه الرسائل التي سيصلها إلى رئيس الدولة الموفد إليها مع أطيب التحيات بالسعادة والرفاهية . ويوقع عليها وزير الخارجية إلى جانب توقيع رئيس الدولة الموفدة .

قابلت المختصين في إدارة المراسم فقالوا لي أن القاعدة بالنسبة لدول الكومنولث البريطاني هو أن رئيس الدولة هو ملكة بريطانيا ، وأن أوغندا بوصفها كذلك فإن أوراق الاعتماد معنونة من الرئيس عبد الناصر للملكة . وعندما قلت لهم أنه حسب معلوماتي أن رئيس أوغندا هو كواباكا (ملك) يوجدنا رغم عضويتها في الكومنولث تلتفت المشرف على المراسم ومحاوثة لبعضهما البعض وبمنظرة فيها شيء من الاستنكار والتحسر : استنكار لجهل السفير الجديد بالوضع السياسي في البلد الموفد إليه ، وتحسر من أن حكومة الثورة ، توفد سفراء من الشبان الجدد قليلي المعرفة . وكنت أجادح الأربعة عاما .

وصلت إلى كيمبالا ونزلت وعائلتي - زوجة وثلاثة أطفال - في كهز فندق المدينة ، وحضر لمقابلتي مندوب من إدارة المراسم الأوغندية للاتفاق على موعد تقديم صورة من أوراق اعتمادى لوزير الخارجية ، والتعرف على تقاليدهم في حفل تقديم أوراق الاعتماد .

وسألته في سياق الحديث على نحو لا يشعر به باستفساري عن تعني باسمه أوراق الاعتماد فقال : سير اندوارد فريدريك موثيسا الثاني رئيس أوغندا (وكواباكا يوجدنا) - وأضاف بأنهم سعداء بأن حضر كانت من أوائل الدول التي بعثت سفير لها إلى كيمبالا ، وأنهم بصدد وضع قواعد للمراسم ، وليست لديهم تقاليد . يحكم أحداث عهدهم بالاستقلال . وأن تقديم أوراق الاعتماد للرئيس الأوغندي سيتم خلال أيام قليلة .

إذن . ولعنا في المخطور ومعنى أوراق الاعتماد الغلط - دعوت على الفور رملاني أقطاب السفارة وهما اثنان للتشاور - وكان من الأفكار المطروحة إرسال برقية رمزية عاجلة للوزارة وطلب أوراق اعتماد جديدة مع مبعوث خاص - ولكن كم يستغرق تنفيذ ذلك من الوقت ؟ أسبوعين أو ثلاثة على أقل تقدير . وما مردود ذلك في الوزارة ؟ كيف يسافر السفير ومعه أوراق موقعة من الرئيس عبد الناصر خطأ ؟ ومن المسئول ؟ وما الحل لو تحدد موعد مقابلة رئيس الدولة خلال بضعة أيام كما قال مندوب المراسم الأوغندي ؟

وقررنا احضار أوراق الاعتماد لمراجعتها . فوجدناها مكتوبة باللغة العربية وبالخط الكوفي الجليل ومعهما ترجمة انجليزية بالآلة الكاتبة واسم الملكة مكتوب على المخطوف . ووجدنا الحل ، وهو تغيير المخطوف وكتابة اسم الرئيس الأوغندي عليه بالحروف اللاتينية وتسلمه في اليوم التالي حسب الموعد لوزير الخارجية .

وتحدد موعد لقاء الرئيس الأوغندي بعد ثلاثة أيام تسلم فيه المخطوف الذي يحوى الترجمة الانجليزية الصحيحة باسمه الكامل والقابله حسبما أخذناها من إدارة المراسم الأوغندية . ومعه أوراق الاعتماد باللغة العربية بنقوشها الكوفية التي يجد حتى من يعرف العربية صعوبة في فك رموزها على حالها .

وفي أثناء خدمتي الطويلة في السلك الدبلوماسي بعد ذلك اكتشفت أنه في بعض الأحيان يحضر السفير ، ولا تكون أوراق اعتماده جاهزة ، ويطلب إليه السفير بضعة عاجلة فتتفق معه إدارة المراسم في البلد الموفد إليه أن يقدم مخطوفا يحوى أوراقا على بياض حتى تصل أوراق الاعتماد الموقعة من رئيس دولته فيصلها لإدارة المراسم - وفي أحوال أخرى يسافر السفير من بلدته ورئيس أوراق اعتماده ويتحدد موعد تقديمها دون أن تكون قد وصلت - وفي إحدى دول أمريكا اللاتينية بعد وصول السفير وقبل تقديمه أوراق اعتماده حدث انقلاب ، وتولى السلطة رئيس جديد للدولة وحرصا على أن يقدم السفير أوراق اعتماده للنظام الجديد طلبت منه إدارة المراسم أن يقدم لرئيس الدولة مخطوفا يحوى أوراقا بيضاء حتى لا تتأخر مراسم تقديم أوراق الاعتماد ولكن

تبدأ مهمة السفير بصفتها رسمية إلى حين وصول الأوراق موقعة من رئيس دولته باسم الرئيس الجديد .

وفي أثناء مدة خدمتي بأوغندا التي امتدت قرابة خمس سنوات حدث صراع على السلطة بين رئيس الوزراء ملتون أوبوتي وبين رئيس الدولة - الكاياكا أسفر عن هروب الكاياكا إلى إنجلترا واستيلاء أوبوتي على السلطة وتنصيب نفسه رئيساً لأوغندا عام ١٩٦٦ . وقد رُئي حينذاك ألا توجد حاجة للسفراء المعتمدين أن يقدموا أوراق اعتماد جديدة باسم الرئيس الجديد ، والاكتفاء بأوراق الاعتماد السابق تقديمها وذلك تقادياً للضرورة أو المطلب الذي قد تتقدم بها بعض الدول - خاصة الكبرى - للموافقة على الوضع الجديد . وهكذا بقيت أوراق اعتمادي على حالها وأصبحنا جميعاً سفراء معتمدين لدى الدولة رغم تغير اسم رئيسها من « الملكة » إلى « الكاياكا » - (وقد مات) إلى الرئيس أوبوتي (وقد عزل) .

في صحتك

توجهت لتقديم أوراق اعتمادي في إبريل عام ١٩٦٦ إلى المنتجع الذي يقيم فيه الرئيس الأوغندي ، ويقع على ربوة في جنوب كمبالا يطل من بعد على بحيرة فكتوريا تحيط به المزارع والأشجار الباسقة في هدوء ساحر . وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة صباحاً .

دخلت إلى غرفة انتظار صغيرة مؤدية إلى قاعة أكبر ستجري فيها مراسم تقديم أوراق الاعتماد ، وكان الترتيب أن ألقى كلمة قصيرة بهذه المناسبة في حضرة فخامة الرئيس الأوغندي باللغة الإنجليزية أعطيت صورتها لوزارة الخارجية ، ويرد عليها فخامته بكلمة معادلة .

وكانت كلمتي تدور حول النيل الخالد الذي يربط بين أوغندا في منبعه ومصر في مصبه عبر التاريخ ، وسعادتي بالعمل أول سفير لمصر هناك وتطلعي لتقوية العلاقات وتعزيزها في كافة المجالات التجارية والزراعية والثقافية الخ .

وتشرف بأن أنقل تحيات الرئيس عبد الناصر للرئيس الأوغندي ، وأصدق تسمياته لأوغندا بالتقدم والازدهار بعد أن حصلت على استقلالها وحررت أراضيها .

وبعد تبادل الكلمات في حضور وزير الخارجية ومديري المراسم الملكية ومراسم وزارة الخارجية جلست جلسة خاصة بجوار الرئيس ، وكان يرتدي حذائه سوداء ، وبطلوناً مقلماً غامقاً - وحذاء أسود طويلاً من نوع ركوب الخيل - ودار بيننا حديث ودي ، ثم قدموا لنا كأسين من الشيمبانيا فتناول كأسه وقال : في صحتك .

وتناولت كأسى وارتشفت قليلاً منها وأنا أفكر في كلمات مختصة بالانتخاب - ولحظة انفجر الرئيس ضاحكاً ، وتحسست قميصي وملايمي لعل سكبت شيئاً عليها ، ولكنه لم يحدث - وشعرت بشيء من الحرج - ولكني بقيت هادئاً مبهتماً حتى استشف الأمر - وبعد أن انتهى الرئيس من الضحك قال : ربما أنك تتعامل عما تعانيه للضحك .

قلت : الواقع كذلك ، وإن كنت مسروراً أن أرى فخامته سعيداً .

قال : إن سبب ضحكك أنني شربت في صحة نفسي ، وأنه كان المفروض عندما اقترح الانتخاب في صحتي أن يشرب هو وحده .

قلت : ولكني شعرت أن من اللائق أن أشارك فخامته الانتخاب ، ولا أتركه يشرب وحده .

ودار حديث ودي وطويل .

وقبيل الانصراف فتح باب القاعة ، وقدمت له الزملاء كبار العاملين بالسفارة ، وانصرفت يمثل ما قولت به من حفاوة وترحاب .

وقد ظلت هذه الواقعة التي استهلكت بها عملي كسفير تلح على كلما ذهبت ليلد وأسأل مدير المراسم والسفراء القدامى من الزملاء هل من المفروض عندما يشرب جمع في حفل تُطب صحة أخدم أن يمتنع هو عن الشرب . فوجدت أن غالبيتهم تستغرب السؤال ، ويقولون بأن يشاركهم

الشراب ولو كان ماء قراجا . ووجدت في دول أوروبا الشرقية يتقارعون الانخاب ويشربون في حفلة اي شيء وكل شيء .

والآن ما رأى القراء وما رأى جهازة البروتوكول ؟

دار سكن السفير

تُصَادَف رئيس البعثة الذي يتكلف بإنشاء بعثة دبلوماسية في بلد لأول مرة الكثير من المهام والمشاكل الادارية في مقدمتها البحث عن مقر مناسب لمكاتب البعثة ودار سكن لائحة لرئيس البعثة وتأمينها وشراء سيارات رسمية للركوب والخدمات وتأمين وسائل الاتصال ببلده الخ

وقد قررت - وكنت اقيم بأكبر فنادق كمبالا في جناح خاص ومعي زوجتي وأولادي - أن أشتري دارا لسكن السفير رغم أن عندي اعتماد الاجار السنوي . ولكني فكرت في أن أوغندا هي التي تل السودان جغرافيا وهي من بلاد منابع النيل ويقتضى الأمن القومي المصري أن يكون لنا فيها وجود مستقر .

وبعد البحث الطويل والتحرى الشاق جاعني صديق باكستاني الأصل من كبار الملاك ومن زعماء الطائفة الاسماعيلية يعرض فيلا رائعة على رتبة ثل - كولولو - وهي إحدى القمم التسع التي تتكون منها كمبالا في منطقة سكنية أثيقة هادئة صممها مهندس إيطالي تحيط بها حديقة واسعة .

اتضح من معاينتها انها مناسبة . وأن سعرها معقول . يقن القناع الوزارة بالقاهرة بأفضلية الشراء على الاجار وتحويل المبلغ المطلوب . وأرسلت برقية مفصلة بذلك للوزارة على أن أبحث لهم بالحقية بتقرير مدعم بالرسومات الهندسية والصور .

ولكن أسهل على الوزارة مهمتها وأقنعها بالشراء قابلت مدير أحد بنوك الدول الأجنبية الآسيوية الصديقة . وعرضت عليه أن أودع لديه اعتمادات السفارة حديثة الإنشاء وظليت منه الحصول على المبلغ المطلوب لشراء دار

سكن السفير على أن يخصم منه الاعتماد المخصص للايجار سنويا حتى يتم تسديده مع الأرباح في عدد من السنوات . وقد أبدى مدير البنك تهما واستعدادا للقبول مع عرض الأمر على المركز الرئيسي في بلدة لأنهم بنك تجارى وليسوا بنكا عقاريا . ولكنهم يرحبون بالتعامل مع السفارة المصرية .

وعندما أرسلت الأوراق للقاهرة كان مردودها عكسيا وانزعجت الوزارة واعتبرت أن الاتفاق مع البنك - إذا تم - فسوف يعنى رهن دار سكن السفير لمعين مصادد الأقساط . وهو أمر لا يليق بحكومة تحترم نفسها .

وسكنت ولم أخبر المالك بشيء واشفقت من ضياع الفرصة . وأوضحت للمستولين بالوزارة بأننا لم نتفق مع البنك على شيء . وإنما مجرد محاولة لتيسير الحصول على ثمن الدار . وانتهى الموضوع عند هذا الحد .

وفجأة بعد بضعة أيام جاعني المشرف على حسابات السفارة وأبلغني أنه تلقى مילفا محولا من الوزارة يوازي ثمن دار السكن المطلوبة . فأخبرنا المالك بالواقعة على الشراء . ويبدو أن الوزارة قد أعادت النظر في الأمر وقررت الاستجابة لمبادرتي .

وقد حدث بعد ذلك أن بدأت الدول الكبرى أوربية - شرقية وغربية - وآسيوية تنفخ بعثاتها الدبلوماسية في أوغندا . وتضاعفت أسعار المبانى . وقل عدد المباني المناسبة سواء للمكاتب أو سكن السفارات . وفقد ثمن دار السكن التي اشتريتها خلال سنوات عدة مرات . فضلا عن أنني أمضيت في كمبالا خمس سنوات ولو كنا أقمت بالايجار لأهدرت الأموال التي دفعت في الاجار السنوي . ولتعدر الشراء لفلاء الاسعار .

الحلم الوطنى

في فترة الصراع على السلطة بين رئيس الوزراء ملثون أويوتى والكاباكا مودوت الأوامر يحظر التحول من غروب الشمس إلى شروقها . واستمر الحال على ذلك أكثر من شهرين . وهو أمر مألوف لعظم الدبلوماسيين الذين عملوا

بالدول الأفريقية السوداء التي واجه معظمها منذ استقلالها في أواخر الستينات انقلابات عسكرية .

وقد اضطر الدبلوماسيون إلى تغيير أنماط حياتهم بحيث يلزمون منازلهم بالليل ، ويعقدون اجتماعاتهم وينقلون نشاطهم الاجتماعي ولقاءاتهم أثناء القاء . وأصبح حديثهم يدور حول حلقات التليفزيون التي يبثون على مشاهدتها وينابيع أحداثها وكانت تعرض المسلسل الأمريكي « الهارب » .

ومن المعروف في الليروتوكول أن قواعد رفع علم الدولة فوق دار سكن رئيس البعثة هو نشرة على صاريته من الصباح حتى غروب الشمس .

غير أنه إزاء المخاطر الأمنية التي قد تتعرض لها البعثات الدبلوماسية ودور سكن رؤسائها رُئي أن يترك العلم الوطني مرفوعا على الصارية نهارا وليلًا على الدوام ، وقيل في تقرير ذلك أن بعض الأفراد من قطاع الطرق والمجرمين يحاولون سرقة الشال ليلا فإذا وجدوا علما مرفوعا خشوا أن يكون صاحب المنزل من الحكام الانجليز . أو أصحاب السلطة فيهرّبون ويتفادون اقتحامه .

ولما كان علم الدولة هو عهدة مكتبية تبعث به الوزارة إلى السفارة ولا يغير من الأمر شيئا أنك تعمل في دولة أفريقية يحتاج الأمن فيها إلى رفع العلم باستمرار ، وهذا يعني تمرقه بسرعة بحكم عوامل التعرية والاضطراب الفزيرة - والعلم هو عنوان الدولة ، وينبغي أن يكون دائما ألوانه زاهية وسلما غير ممزق . ومن المفضل أن لا كثير من دول العالم الثالث النخلة نجد الاعلام المرفوعة على دور الحكومة ومؤسساتها بأهتة اللون أو ممزقة .

أخذت عينة من العلم المصري وتوجهت إلى الحي الوطني في كمبالا ، وكلفت أحد المحلات - منجد لانه لا يوجد متخصص في صناعة الاعلام - بعمل نسخة اعلام وفقا للعينة بحيث تكفيها على مدار السنة . . وفي علم الدولة مرفوعا في جميع الأوقات .

خذ ما تشاء

في عام ١٩٦٥ جامتا مذكرة من وزارة الخارجية الاوغندية . ادارة المراسم بأن ملك ولاية « ثورو » قد ثوب . وإن مراسم تشييع الجفازة والدفن ستقام في عاصمة الاقليم في مدينة « فورت بورنال » .

تقع مدينة فورت بورنال في غرب أوغندا في مناطق جبال « الروينزوري » أو جبال القمر حيث تسكن قبائل الأقزام وتشتهر بزيادة الشاي لارتفاعها ، وتوجد بها مصانع يملكها الهنود والباكستانيون لتعبئته وتصديره . كما توجد بها مناجم « كليبي » للنحاس الذي تستخرجه شركة كندية وثقله لصهره في « جنجا » على بحيرة فيكتوريا ثم تصديره من « مبيسا » في كينيا على الساحل الشرقي - وجبال الروينزوري ويبلغ ارتفاع قممها ١٦٧٦٢ قدم (٥١٢٩ مترا) تكسوها الشج والجليد وتقلها السحب الدكنة .

تدفقت ارتال سيارات السفراء ترفع أعلامها من كمبالا إلى « فورت بورنال » في طريق أسفلت معهد منذ وقت الوجود البريطاني تحفه الانصار والبحيرات ، ويستغرق نحو أربع ساعات .

وعندما وصلنا إلى الفندق بعد الظهور وجدت عددا من السفراء يتناولون الشاي في حديقة الفندق - ول النساء جالسي سفير إحدى الدول الاسيوية الشيوعية الكبرى معه المترجم . وكان يبدو عليه القلق . وسألني هل احضر معي اكبلا من الزهور لوضعه على قبر الملك المتوفى . فاجبته بالنفي . فقال أن بعض السفراء قد احضر اكبلا معه من كمبالا . قلت له فليحاول مع ادارة الفندق لعلها تجد له مخرجا .

وبعد قليل جاتني مرة أخرى وابلغني - عن طريق المترجم - أنه طلب من ادارة الفندق تدبير اكبيل من الزهور فأشاروا له إلى النجيل في حديقة الفندق ليحمل منه الاكبيل . فالتفت له خذ ما تشاء .

وأضاف أن هذا غير عملي ولا توجد محلات للزهور في هذه المنطقة النائية وبرنامج الصباح يبدأ من التاسعة ولا يوجد وقت .

اقتُرحت عليه أن يقابل عميد السلك الدبلوماسي وهو معنا بنفس الفندق . وأبدت له استعدادي أن أذهب معه . فقال أنه قابلته وأن العميد أحضر معه أكليلا ، ولكن لكي يقدمه باسم حكومته الاتحادية . وأنه رفض أن يفعل ذلك باسم رؤساء البعثات الدبلوماسية ببناء وشعم .

في صباح اليوم التالي توجهنا في رتل طويل من سيارات المستولين في الحكومة والسادة السفراء إلى المذبح الذي سيوارى فيه جثمان الملك الراحل وشققنا طريقنا وسط الفوضى والزحام المأكوف في مثل هذه المناسبات . ولم تكن هناك مقاعد كافية لجلوس كبار المدعوين .

ووقف حاملو الأكليل صفًا حتى أشار إليهم المشرف على الاحتفال بوضع الأكليل فقاموا بوضعها حول الحفرة التي سيسجى فيها تابوت المتوفى وسقط كثير منها داخل الحفرة .

وأطلقت الموسيقى العسكرية أياقها وجرى بالتابوت لهذا به مصنوع من النحاس هدية لأسرة الملك الراحل من مناجم نحاس ، كلبيبي ، - وعندما أنزل التابوت اتضح أنه أطول من الحفرة . وكان ملكا عملاقا - فأشار المشرف إلى حسانكه برفع أكليل الزهور وتبريق الحفرة .

وما هي إلا دقائق حتى نزع أكليل الزهور ورميت خارج السور وديست بأقدام الأهالي المتفرجين وبديء في توسيع الحفرة بالمحاول والفؤوس .

ونظرت لكي أرى الانطباع لدى عميد السلك ممثل الدولة الأوربية الغربية الكبيرة . فوجدته لم يحتمل الموقف وتوك مكان الاحتفال مسرعا إلى الخارج .

بقي أن تعرف أن الذي نيط به الإشراف على مراسم الدفن هو قائد القوات المسلحة الأوغندية آنذاك البريجادير غيدي أمين .

وفي المساء تجمعنا مرة أخرى ولكن بمناسبة تولى ابنه السلطة ملكا « أوموكاما » وهو الاسم التقليدي لملك تورو .

وانتهى سفير دولة في زعيمة العالم الغربي يلقي كلمة يتقل فيها تحيات

حكومة بلده وشعبها إلى مملكة تورو وأهلها . ويقدم هدية عبارة عن طقم شاي وصينية من الفضة .

وكان يقف إلى جانبي أحد أصدقائي من السفراء يمثل إحدى كبريات دول عدم الانحياز . فقال : أراهن أن بلد ذلك السفير لا تعرف أين تقع أوغندا فما بالك « بتورو » وأضاف ألا تعلم أن أوبوني يحاول توحيد أوغندا ويخطط للقضاء على هذه الملكيات القبلية نهائيا .

وكانت أوغندا عند استقلالها عن بريطانيا عام ١٩٦٢ تضم عددا من الممالك القبلية في الجنوب أكبرها بوجندا . ويلقب ملكها « كايكا » ، وأنكولي « وملكها « أوموجابي » وكل من « تورو » ، وبنينورو . ويلقب الملك فيها « أوموكاما » .

وبعلا الغي « أوبوني » هذه الممالك - التقليدية عام ١٩٦٧ وجعلها مقاطعات تتبع الحكومة المركزية رأسا ويرأسها حاكم معين من قبل الرئيس الأوغندي

الذباية

بعد أن أمضيت عدة أعوام في أوغندا هربت زيارة منطقة « كاراموجا » التي تقع في أقصى الشمال الشرقي تحدها كينيا شرقا والسودان شمالا ، وهي مقاطعة لا يسمح للأجانب بدخولها إلا بإذن خاص

وهي منطقة شديدة الجفاف شديدة الفقر لا يتجاوز عدد سكانها ٣٠٠ ألف نسمة وتبعد عن كمبالا بنحو ٤٢٠ كيلو مترا .

وقد وصلنا بالسيارة إلى معسكر يتبع الأمم المتحدة . وكان يرافقني في الرحلة مدير مكتب الرى المصري المهندس عبد الهادي سماعة المقيم في جنجا . (وأصبح وزيرا للرئى المصري من ٧٨ - ١٩٨٢) . وكان في استقبالنا بالمعسكر المهندس الثقيم وهو أمريكي الجنسية ويشرف على تنفيذ مشروع تنويع منظمة الأغذية والزراعة لاستخراج المياه من باطن الأرض لشرب المواطنين

والمحسكر عبارة عن عزبة كازافان ، ويضع خيام للضيوف وللعاملين والحرس الأفريقيين يحيط به سور من الأعشاب . ويسكن الأمريكي في عزبة الكازافان ، ربما لأنها أسلم من الفاحية الأممية في تلك المنطقة النائية التي لا يصلها الرجل الأبيض . وخلفها وضع خزائن فوق الأشجار يتدل منه كوز مخرم ويحل يشده فتقاطر منه المياه ويستعمله كدش للاستحمام .

وقد توجهنا في صباح اليوم التالي إلى أحد صنابير المياه الجوفية بصحبة المهندس الأمريكي الذي يعرف بعض كلمات لفقاهم باللهجة المحلية . ووجدنا الأهالي متجمعين يحطون جوارهم والأواني للثأ بالمياه العذبة . وغالبيتهم من النساء جئيعهن صدورهن عارية حسب المألوف في هذه المنطقة .

وأخبرنا المهندس أن السيدات المتزوجات يلبسن جونلة من القماش السميك ، أما البنات غير المتزوجات فيلبسن جونلة من جلد الحيوانات وعليها عدد من الأحزمة . وترى الرجال يشتغلون بفلحة الأرض ، أو يتجشرون في سوق القرية عزايا إلا من قطعة من القماش تتدل من كتفهم .

وقد أکبرت ذلك العمل الذي يشرف عليه الأمريكي في دق طلمبات المياه خدمة لأهالي تلك المنطقة النائية . وعلمت منه أنه يقضى نحو ثلاثة شهور بالمنطقة ، ثم يعود إلى نيويورك في أجازة طويلة وهكذا . وإنى أشك في أن أحدا بالأمم المتحدة يسمع عن ذلك الجندي المجهول الذي يعيش في ظروف بدائية قاسية ، وعن ذلك العمل الجليل الذي يؤديه . وقد لاحظت أنه يتعاطى المشروبات الروحية باستمرار ربما في محاولة للتغلب على ظروف الحياة الموحشة التي يحياها مهما كان عائدا المادى عليه .

وبعد يوم آخر واصلنا السفر إلى حديقة الحيوان البرية المسماة « كيديو » وهي على حدود السودان وقابلنا الإنجليزي المشرف عليها ، وهي ليست غنية بالحيوانات مثل حديقة شلالات مارشيزون التي تقع في شمال غرب أوغندا والمعروفة للسياح .

وفي طريق عودتنا عند أحد الزواحف المائية في شمال « كاراموجا » وقفنا عند نقطة تفتيش صحي . وجاء شخص أفريقي مدرب يحمل في يده شبكة

مصيدة للحشرات ولبس معطفاً أبيض وأخذ يتطلع داخل السيارة بغیون بقطة جادة دون أن يقول شيئاً . ونزلنا من السيارة وتوجهنا إلى مكتبه وهو استراحة وغرفة نظيفة على جانب الطريق . وجاءنا بعد التفتيش وبخ السيارة بالمطهرات . وقال كل شيء على ما يرام . فسألته عن مهمته فقال إنه يصطاد ذبابة « النسي نسي » . ويوجدته معلقاً على الحائط صورا ونشرات وتحذيرات من هيئة الصحة العالمية . والمعروف إن ذبابة أو بعوضة « النسي نسي » هي التي تسبب في مرض النوم لدى الأفريقيين .

وسألت المعرض الأفريقي عما إذا كانت تلك الذبابة موجودة في هذه المنطقة ففتح درج مكتبه وأراني يضع حشرات من التي التقطها بشبكته وقتها .

شكرته على كفايته ولفرت في السيارة وقلت للسائق إلى كمبالا بغير توقف . وحاولت النوم . ولكن صورة ذبابة النسي نسي كانت تزعجني .

أعتقد أن قليلا من الدبلوماسيين هو الذي يعرف حق المعرفة المخاطر التي يتعرضون لها في مناطق الخدمة الشاقة .

هجوم ودخان

في ربيع عام ١٩٦٦ - وعلى وجه التحديد بعد ظهور يوم ٢٤ مايو - شاهدنا من دار السكن سحبا كثيفة من الدخان تغطي سماء شحال شرقي كمبالا ، لا شك أنها تبدأ حتى تتصاعد مرة أخرى ، ولا أحد يذرى على وجه التحديد أين يقع ذلك الحريق الهائل .

وفي العصر بدأت المعلومات تصل بأن القوات المسلحة الأوغندية بعدفتيتها بدأت منذ الصباح تهاجم قصر الرئيس الأوغندي « الكايباكا » وتذكره دكا بالقنابل . وقد تحصن الكايباكا داخل قصره ، تدافع عنه قوات حرسه الخاص شديدة الولاء له من أبناء يوجندا ، ويقود الحملة ضده البزيجادير جنرال عيدي أمين قائد القوات المسلحة بناء على تعليمات من رئيس الوزراء ملتون أوبوتي الذي كان قد نصب نفسه رئيسا تنفيذيا للبلاد .

وبحسب مساء ذلك اليوم لم تكن قوات الحكومة قد نجحت في اقتحام القصر ، وإن كانت قد أوقعت به خسائر مادية كبيرة ، وذلك بفضل استيصال المداهمين عن الكاباكا .

وأخيرا بعد أن نجحت قوات الحكومة في اقتحام القصر والسيطرة على الموقف لم تجد الكاباكا حيا أو ميتا ، وكان فيما يبدو قد هرب من باب سرى إلى الغابة المجاورة واختفى فيها بعد أن غير زيّه . ولم تستطع قوات الحكومة من اقتلاء أثره .

وقبيل مغرب ذلك اليوم جاعى على عجل أحد اصديقاء السفارة من وزراء الكاباكا وقال : وهو يشاهد سحب الدخان انهم يحاولون قتل الكاباكا ، ورجائى التدخل لدى أوبوتى لانقاذ حياته . وقد أفهمته أن هذه مسألة داخلية وصراع على السلطة لا يمكن أن تزج بانفسنا فيه .

وبعد أيام ظهر الكاباكا في لندن حيث طلب حق اللجوء السياسي ؛ وشيخ إياه .

والواقع أن الهجوم على قصر الكاباكا كان ذروة فترة طويلة من الصراع بين أوبوتى والكاباكا بدأ عقب الاستقلال ، وكان واضحا لنا خلال أعوام ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦ .

وبغير حاجة إلى الدخول في تفاصيل معقدة ، فإن أوبوتى وهو من قبيلة من شمال أوغندا حاول منذ البداية دمج بوجندا أكبر الممالك ضمن بورقة الوحدة الوطنية الأوغندية على الأقل من الناحية النظرية ولم يكن ذلك سهلا .

فيبوجندا مملكة قبلية يرتد تاريخها عدة قرون ، ولها ملوكها ، الكاباكا ، يتوارثون العرش ، ولها لغة تسمى « التوجندا » هي أوسع اللغات انتشارا بالمنطقة . وتصدر بها صحيفتان ، ولها وزارة محلية وبرلمان أو مجلس نيابي يسمى « ليكوكو » ويقدر عدد سكانها بنحو ٢ مليون نسمة في تلك الأيام .

وفي افتتاح دورة « الليكوكو » كانت ترسل لنا دعوة للحضور ضمن عدد محدود من سفراء الدول الصديقة ، وكنا نجلس عدة ساعات نستمع كلمات وخطاب باللغة التوجندية بغير ترجمة طبعا . بينما البرلمان « الاتحادى »

تستخدم فيه اللغة الرسمية وهي الانجليزية التي يفهمها نحو ٢٥٪ من السكان .

وعندما تقرر انتخاب الكاباكا موتيسا الثانى أول رئيس لأوغندا في أكتوبر ١٩٦٢ جمع في شخصه الولاء القليل لمملكته التى يرث عرشها عن أبائه وأجداده من « البانتو » ورئاسة لياقى الممالك في الغرب والمقاطعات في الشمال وهم ممن يسمون « الثبيلين » . ولكن ليس له فيها جذور ولا يحسون نحوه بولاء .

وطوال فترة الوجود البريطانى في أوغندا احتفظت بريطانيا ، لمملكة بوجندا ، وملوكها « كاباكا » بنوع من الحكم الذاتى . وتقع كمبالا العاصمة في غرب بوجندا ، وهي أكثر تحضرا من غيرها من الأقاليم ويشغل أهلها بالزراعة ولا سيما زراعة البن والقطن .

والمرأة في بوجندا هي التى تقوم بالفلاحة وليس الرجل البوجندى يعكس المناطق والممالك الأخرى في الغرب حيث يشغل الرجل برعى الماشية .

والطريف أنه حسب التقاليد والعادات في بوجندا المرأة لا تأكل لحم البقر وإن كانت تقوم بتربيتها . والسبب في ذلك هو اعتقادها بأن لكل البواقي يضعف أنوثتها . ولا يعرف بالخدمة كيف استقر ذلك الاعتقاد في الأذهان من السنين ، وهل هو من قبيل تعليقات طبيب السسر ، أم أن الرجال البوجندى قد أدخل ذلك الاعتقاد في روعها بحيث ضمن أن زوجة ترمى له الدخان في المزرعة ، ويتكاثر وهي لا تقويه ، ويضمن أنها لا تنكح من وراء ظهره . والسؤال المطروح هو ما رأى رجال الطب الحديث في ذلك الاعتقاد .

وأما بوجندا شديدا الولاء « للكاباكا » ويتنظمهم حزب اسمه « كاباكا يكا » أى الكاباكا فقط . وحاول أوبوتى من خلال حزبه « مؤتمر الشعب الأوغندى » أن يستقطب أعضاء حزب الكاباكا بغيز جدوى . واستمرت المصادمات الحزبية في ربيع عام ١٩٦٦ حيث قام أوبوتى بالقىض على المعارضين لسياسته ، وأعلن نفسه رئيسا تنفيذيا يحجة أن الكاباكا طلب مساعده المندوب السامى البريطانى وأصدر دستوراً جديدا في ١٥ أبريل ١٩٦٦ أبقى الصفة شبه الفيدرالية التى تقرر في دستور الاستقلال لبعض

حاشية

بعد أن غادرت أوغندا في أغسطس ١٩٦٨ أصبح اعتماد الرئيس أوبوتي بالدرجة الأولى على القوات المسلحة وقوات الأمن الخاصة . وفي يناير ١٩٧١ أثناء غياب أوبوتي لحضور مؤتمر الكونك في سنغافورة قام الجنرال عيدي أمين قائد القوات المسلحة بالاستيلاء على السلطة وأعلن نفسه رئيساً لأوغندا . وأنهى بذلك تسع سنوات من حكم أوبوتي الفعّل .

واسلوب الانقلابات العسكرية أصبح نموذجاً متكرراً للانقضاض على السلطة والاستيلاء على الحكم في إفريقيا بحيث أصبحت ١٩ دولة من بين ٤٠ دولة إفريقية سوداء يحكمها الجيش في الوقت الحاضر .

وقد استمر عيدي أمين في الحكم بدوره لمدة تسع سنوات كان أبرز ما فيها طرد الجالية الآسيوية التي كانت تحتل مركزاً قوياً في اقتصاديات وتجارة البلاد عام ١٩٧٢ . وإلغاء المؤسسات الدستورية ، وإنشاء الديمقراطية

وبمناسبة الإشارة إلى طرد الآسيويين ، أود أن أبوي قصة طريفة حدثت لنا . فلي أوغندا - كما في العديد من الدول الإفريقية - توجد جالية أجنبية تشتهر بتساهلهم بقدر وإفر في التجارة ، وتملك عدداً من المؤسسات كالبنوك والمطاعم والأسواق (السوبرماركت) والبنوك والشركات وبعض المزارع الشاسعة كقصب السكر والشاي .

وغالبية هذه الجالية من الهنود - بما فيهم طائفة السيخ المعروفين بكفاءتهم في الحرف والصناعات الدقيقة كال ميكانيكا والكهرباء - والباكستانيين وخاصة الطائفة الإسماعيلية من أتباع الأغاخان ويقدّر عددهم بنحو خمسين ألفاً .

وأذكر أن صاحب فندق من أكبر فنادق كينيا ، وهو من مقاطعة ، جوا ، بالهند ومن أكفأ رجال الأعمال الأغنياء دعاني وزوجتي وسفير الهند وحرفه على العشاء بفندقه - وطبعي أن حضر كبير الطهاة وقدم أفخر ما لديه من

المالك . ورد - اليوكو - على تلك الخطوة بأن طالب الحكومة المركزية بعفارة بوجندا وطردها من كينيا في موعد أقصاه ٣٠ مايو ! ومن هنا وقبل انتهاء المهلة وقع الهجوم العسكري الذي أشرنا إليه .

وفي عام ١٩٦٧ ألقي أوبوتي ليس فقط معلكة بوجندا وحكومتها ، بل وجميع المالك التقليدية الأخرى وجعلها جميعاً مجرد مقاطعات تتبع الحكومة المركزية .

وقد أضفت تلك الخطوات نوعاً من التوتر والقلق السياسي على الجو العام ، وتحدث الأوضاع الأمنية في بوجندا بصفة عامة - وأصبح الرئيس أوبوتي يعتمد أكثر وأكثر على القوات المسلحة الأوغندية بقيادة عيدي أمين وأصبح واضحاً أنه يخطر بسرعة نحو الديكتاتورية وحكم الفرد تسانده قواته الخاصة بعد أن تآكل التأييد الشعبي له حتى من بين أنصار حزبه أنفسهم .

وقد غادرت أوغندا في تلك الفترة في صيف ١٩٦٨ متقولا لأحدى دول الشمال - وكنت قد سمعت أخبار نقل أثناء وجودي في - بوجمبورا - عاصمة بورندي حيث كنت سفيراً معتمداً لديها .

وتشورت صحيفة - الأرجس - المحررة بالإنجليزية عنواناً كبيراً : بركات مهمة فنلندية ، Barakat Finish Job وقال لي صديقي المدرب السامي البريطاني بكيمبالا أنهم أخطأوا في هجاء كلمة Finish بمعنى انتهى إذ كان ينبغي أن تكتب Finnish أي فنلندية .

كنت في هلسنكي عندما قرأت في الصحف تباً وفاة الكاياكا موتيسا في ٢٨ نوفمبر ١٩٦٩ بعد أن اشتدت به الفاقة والمرض في لندن واعتلت صحته حتى وإفاه الأجل المحتوم - وقد نقل عيدي أمين الذي استولى على الحكم بعد ذلك رفات الكاياكا إلى بوجندا حيث دفن بالقوة الملكية في كينيا مع أجداده .

ماكولات ولا يكاد صاحب العمل يطلب شيئا خارج قائمة الطعام حتى يائسا .
وعندما جاء دور الحلو طلبنا نوع « كريب سوزيت » ، crip suzette وهي
فطيرة رقيقة مطوية مطلاة بالعسل وتقدم على صحاف مشتعلة بالبراندى .
وانحنى « الشيف » سعيدها بالطلب واختفى . وطال بنا الوقت ونحن نازلنا
نتنظر حتى كدنا نتصرف ، وأخيرا جاء « الشيف » متبسما ومعه الطبق
الموعود وقد نفذ رغبات رب العمل وإذا به حبات من العنب منتشرة على الطبق
مشتعلة !

ودهشنا في البداية ثم انفجرنا بالضحك وسألناه عما حدث فأتضح أنه
سمع أننا طلبنا Grape Suzette فأرسل معاونيه يجوبون المدينة في هذه
الساعة المتأخرة حتى يحصلوا على العنب وطهأه على طريقة فطيرة
الـ suzette ! المهم أن طلب صاحب العمل لابد أن يجاب .

وقد همتا الطياخ الأول على ابتكاره وائتينا على الحلو ، وكانت هذه أول
مرة ناكل فيها العنب على هذه الطريقة المشتعلة .

بعد سرد هذه الواقعة نعود لحديثنا عن لعبة السياسة والانقلابات .
فعندما تولى الرئيس عيسى أمين الحكم عام ١٩٧١ قرر بعدها طرد هذه الجالية
الهندية الباكستانية حتى يحظى الفرصة للمواطنين الأرغنديين لكي يشكوا
المتاجر ، ويشاركوا في الحرف والصناعات والتنمية الاقتصادية بصفة عامة .

وكانت النتيجة أن قام بترحيل عدة آلاف من هؤلاء الأسبوبيين إلى
بريطانيا باعتبار أنهم ينتمون بجنسياتهم للكنولث البريطانى . ولا شك أن هذا
الطرد الجماعى كان من نتيجته أن سبب مشكلة لبريطانيا من حيث استيطانهم
وبشكل صغرى اكيز على المدى الطويل . فهم رغم أنهم أقلية عاملة دعوب
إلا أنهم يكونون مجتمعا خاصا بهم لهم تقاليدهم ومفهومهم الدينية ، ولا يمكن
عرقيا ادماجهم في الشعب البريطانى .

وكما يعلم القارئ من متابعته للعبة السياسة والانقلابات العسكرية في
أفريقيا أن المعارضة الأوغندية استعانت بالقوات المسلحة التتالية في محاولة
للقضاء على حكم عيسى أمين . وقد نجحت فعلا في احتلال كيبالا عام ١٩٧٩ .

وبعد فشل حكومتين مدنييتين عاد أوبوتى إلى الحكم مرة أخرى في ديسمبر
١٩٨٠ بانتخابات عامة حصل فيها حزبه على أغلبية ضئيلة .

وهكذا أصلى أوبوتى فرصة ثانية لحكم أوغندا ، لكنه تلقى الدرس ووعاه
خلال إقصائه عن السلطة لفترة امتدت تسع سنوات .

ولكن بعد حوالى أربع سنوات من التجربة الثانية وقع في يوتية عام
١٩٨٥ انقلاب عسكري أطاح بالرئيس أوبوتى ، وأعلن تنصيب الجنرال
تيبو أوكيللو رئيسا للبلاد . وفي نفس الوقت كانت حركة المقاومة السرية ضد
أوبوتى تقوم بعملياتها في الشمال منذ عام ١٩٨١ بقيادة وزير دفاعه السابق
يوزرى موسيغيني .

ويبدو أن أوبوتى قد فشل في تقليص المؤسسة العسكرية وإنعاش
الأوضاع الاقتصادية ، ورادت حالة الفوضى والإرهاب في عهده بما عطل
بالانقلاب العسكري ضده . وقد هرب أوبوتى وبعض أنصاره إلى كينيا ومنها
إلى زامبيا حيث طلبوا اللجوء السياسي ومنحوا إياه لأغبيارات إنسانية .

وكالعادة في مثل هذه الانقلابات يقول قادة الانقلاب أن الحكم العسكري
في أوغندا لن يطول ، وأن العودة للديمقراطية ستكون بأسرع ما يمكن بقدر
ما تسمح به الظروف .

طبعا التصريحات والأمانى شيء ، والواقع شيء آخر . ورغم فرار أوبوتى
استمرت الحرب الأهلية مستعرة بين قوات الحكومة التي يمثلها المجلس
العسكري الحاكم وبين جيش المقاومة الوطنى عدة شهور ، وتردت الأوضاع
الأمنية في البلاد وانهارت السلطة المدنية ، وانتشرت الجيوش الخاصة في
الشوارع وانقطعت امدادات الغذاء وتعطل التعليم .

وأخيرا توصل الطرفان إلى اتفاق في نيروبي في ديسمبر ١٩٨٥ ووقعت
معاهدة سلام بين المجلس العسكري الحاكم ويمثله أوكيللو وجيش المقاومة
الوطنى ويمثله موسيغيني بحضور الرئيس الكينى دانييل أراب موي الذي لعب
دورا هاما في التوصل إلى ذلك الاتفاق . وينص على وقف الحرب الأهلية وتقسيم
السلطة بين الطرفين ، والدعوة لعقد مؤتمر قومي للأحزاب والجماعات

المسلحة تمهيدا للدعوة إلى إجراء انتخابات عامة ، والاستعانة بقوة من دول الكومنولث (٧٠٠ شخص) للإشراف على تدريب جيش أوغندي جديد . وكان المأمول أن تكون هذه الاتفاقية هي بداية الطريق نحو الاستقرار وتهتد الصراعات واستتباب الأمن والسلام .

ولكن الذي حدث أن استمر الصراع المسلح على السلطة ، وأخيرا طبقت قوات الثوار على كمبالا واستشرى السلب والنهب والقتل ، ورجحت كفة الثوار وهربت قوات الحكومة ، وأعلن تنصيب موبينزي رئيسا لأوغندا خلفا لـ لاو كيلو في ٣٠ يناير ١٩٨٦ وبدأ بتشكيل الحكومة مع الوند التقليدي بإنهاء الحكم العسكري في أقرب فرصة وعودة الديمقراطية .

بقى أن نرى ما سوف يسفر عنه المستقبل مثله مثل باقي الانقلابات العسكرية في القارة الإفريقية .

ولابد في هذا من كلمة ، وهي أنه بعد فحوربع قرن من تحقيق الاستقلال السياسي أعظم دول أفريقيا السوداء مازالت أبعد ما تكون عن الاستقرار السياسي . وقد وقع فيها ستون انقلابا يواقع انقلاب كل خمسة شهور . ولن يكون الانقلاب في أوغندا آخر الانقلابات ، هذا بخلاف العديد من الانقلابات الفاشلة التي لم تثر الثور .

وما نشاهده اليوم في كثير من الدول الإفريقية من فقر مدقع ومجاعة مهلكة ليس مرجعه وحده الجفاف أو التصحر ، إن أفة إفريقيا الحقيقية هي أسلوب الحكم .

حاولت كثير من الدول الإفريقية أن تأخذ بالنظام الديمقراطي الغربي بالكامل مع وجود معارضة يمكنها أن تغوز بالسلطة في انتخابات حرة . ولكن لم يؤخذ بهذا النظام في التطبيق العملي . وفي الدول التي مازال فيها الحكم المدني قائما يهيمن عادة على السلطة حزب واحد بحجة الوحدة الوطنية . مؤسسة في معظم الأحوال رئيس يتولى السلطة مدى الحياة ، ولا يسيل إلى تنحيته إلا بوفاته ، أو بانقلاب عسكري !

هناك بطبيعة الحال نماذج استثنائية نادرة لهذه القاعدة مثل نازار

ليوبولد سنجور في السنغال وجوليوس نيريري في تنزانيا . وليست الديمقراطية الغربية بحذاقيرها هي بالضرورة الحل الأمثل لنظام الحكم في الدول الإفريقية ، لأن المشكلة ربما تكون مواجهة الفقر والمجاعة والازمة الاقتصادية بالدرجة الأولى . ولكن لابد من الديمقراطية كأسلوب حكم مع تطويرها بما يناسب الظروف المحلية لكل بلد بغير إهدار لقيمها ومفهومها ومضامينها .

بقى أوغندا على سبيل المثال الانتعاش القليل أقرى بكثير من الانتعاش القومي . و « شعب بوجندا » حريص على مقوماته وحكمه الذاتي أكثر من اندماجه في وحدة الدولة الأوغندية . ولا يمكن القضاء على القبلية المتوارثة عبر الأجيال في بضع سنين كما حاول أوبوتي . وذلك في غياب التعليم والوعي السياسي فضلا عن محاولة فرض هيمنة قبيلته على الباقين . وهذا لا يعني تعميق القبلية والانفصالية وإنما ينبغي السير في اتجاه التقريب ولكن بتؤدة وخطوات ثابتة وفي كل شيء بأمانة وتجرد وإخلاص من أجل المصلحة الوطنية الكبرى لا من أجل الحزبية والمصلحة الشخصية .

أما أسلوب الديكتاتوريات والفور والبطش وإهدار حقوق الإنسان وترويع الانتخابات وتلفيق الاستفتاءات والاعتماد على القوات المسلحة كمصدر القوة للرئيس فإنه يمهّد السبيل لتقول العسكريين الحكم بأنفسهم . وهكذا ترويع السياسة في إفريقيا في حلقة مفرغة يكون ضحيتها الشعوب في فقرها ومجاعتها وتخلطها .

ولو أن ونستون تشرشل قام من قبره وشهد ما جرى ويجري في أوغندا لتصر على ما تردت إليه أوضاعها بحيث لم تعد « دنة إفريقيا » بل ربما أقرب ما تكون إلى « جوهرة في الوحل » .



www.liilas.com

منتديات ليلاس

المفصل الثالث

تلاوة الشما

الأقدمية

في ضحى يوم من أيام أكتوبر ١٩٦٨ وصلت إلى مطار فلسطين قادمًا من كيبالا من وسط أفريقيا هربوا بالهزيمة لتولى مهام منحى سفيرا مصر في لفلندا .

وكان في انتظاري بالمطار وفقا للتقاليد الدبلوماسية مدير إدارة المراسم بوزارة الخارجية الفنلندية ورفلاى أعضاء السفارة المصرية . فاستقبلني الجميع بالترحاب . وانتهت الاجراءات ولزالت حفاشى ولم يحض سوى وقت قصير حتى كنت أجلس في السيارة الفاخرة التى أعدها إدارة المراسم ومعى مديرها ق طريقنا إلى دار السكن .

هل سبقت لك الخدمة في هذه المنطقة ؟ وكان ردى على مرافقى بالسلب . هل سبق لك زيارة هذه البلاد ؟ وكان ردى أيضا بالسلب . فلم يسبق لى زيارة دول شمال أوروبا .

وعندما لاحظت أن إجاباتى كلها بالسلب مما قد يستشف منه جهل بالمنطقة أردت ببعض العبارات توضح اننى مستذكر لدروى . فقلت إننى سعيد بالحضور إلى تلك البلاد الجميلة عطيقتها وسكانها والفنية ببحيراتها التى تتجاوز ٢٠ ألف بحيرة . وأننى بعد أن أمضيت نحو خمس سنوات على خط الاستواء أطلع بشغف شديد إلى التعرف على تلك المنطقة وزيارة المنطقة القطبية الشمالية .

وأخذت السيارة نللف بنا من المطار إلى العاصمة فلسطين بورمانا رتل من سيارات أعضاء السفارة . وسرعت ببصرى إلى الخارج فوجدت مسحة الشتاء المبكر قد حلت . وقد اصفرت أوراق اشجار المتولا . وانتظمت بجذوعها البيضاء في صفوف مراقبة مستوية . وتناثرت المنازل والمساكن بعدانقيا على طول الطريق في سكون يديع . . وكانت السحب الداكنة تغلف السماء والشمس تنجع عن وقت آخر في ان تفلت منها فتضفى على الجو نورا وبهاء وشعورا بالدفء .

وصلنا إلى دار السكن وصعدنا إلى الطابق العلوي وانضم إلينا أعضاء السفارة ، وبعد تناول المشروبات والقهوة ، سألت مدير المراسم عن موعد تقديم صورة أوراق الاعتماد لوزير الخارجية والموعد المرتقب لتقديمها لقائمة رئيس الدولة ، فأجبتني بأنه سوف يتصل بين في الغدا ، واستأذن في الانصراف لأنه سيتوجه لتودع ثانياً إلى المطار لاستقبال سفير الهند الجديد .

لم يمض أكثر من عشرة أيام حتى كنت قد قدمت أوراق اعتمادى للرئيس الفنلندي « آرهو كيككونين » بالقصر الجمهوري في الساعة العاشرة من صباح يوم جمعة . . وكان لقاء ودياً رائعاً اُسمم بالقائمة في الاستقبال ، واستعرض لحرس الشرف في فناء القصر حيث صدحت الموسيقى المشيد الوطني لكل من مصر وفنلندا ثم أجريت الحديث مع فخامة الرئيس دون حاجة لالقاء خطاب ، أو كلمات معدة مسجلة ، وذلك وفقاً للتقاليد المتبعة لديهم .

ودامت مراسم الاحتفال نحو نصف ساعة انصرفت على إثرها لاني علمت أن فخامة الرئيس الفنلندي سوف يستقبل بعدئى عدداً من السفراء .

وما هي إلا أسابيع حتى تلقيت دعوة لحضور حفل يقام ظهراً بالقصر الجمهوري احتفاءً برئيس وزراء إحدى الدول الصديقة المجاورة لفنلندا الذي يزورها زيارة رسمية ، وقد جرت العادة على أن يقدم إلى الضيف الكبير السفراء المعتمدين بهلسنكي .

تصفحت القائمة الدبلوماسية التي تصدرها إدارة المراسم بوزارة الخارجية - مرة كل ستة شهور - فاكشفت أن آخر سفير قدم أوراق اعتمادة قبل - خلال شهر سبتمبر - هو سفير إسرائيل وهذا يعني أننا إذا ولقنا صفياً في ذلك الاحتفال ولقنا إلى جانب بعضنا البعض .

وتذكرت على الفور أن الرئيس عبد الناصر عرض نائب وزير الخارجية لتصريح حول إسرائيل ، وتوقفت أن الصحف سوف تشر صورنا الفوتوغرافية ونحن نتحدث في صفحاتها الأولى مما يكون له مردود سيء في القاهرة ولذلك قررت نقادى هذا المأزق عملاً بالمثل القائل : « الباب الذي يجرى منه الريح سده واستريح » .

تحدثت مع مدير المراسم وشرحت له وضعنا بالنسبة لإسرائيل وأنه

ليس فقط أنه لا يوجد اعتراف بها ولا علاقات دبلوماسية معها بل أكثر من ذلك أنها تحتل أراضى ثلاث دول عربية من بينها مصر .

وطلبت عنه تفادياً للحرج ألا أقف جنباً إلى جنب مع سفير إسرائيل في حفل الاستقبال المقام لرئيس الوزراء الضيف ، وأن ذلك ليس فيه أى اعتبار شخصي ، وأنه لن يقدم الوسيلة لتحقيق تلك الرغبة البسيطة .

وقد شعرت من رد مدير المراسم أن هذا الترتيب البيروتوكولى يفرضه أقدمية السفراء ، وأنه لا سبيل له إلى التصرف ، بل علق على طليبي بأنه لعل هذا التجاور المرتقب بينى وبين سفير إسرائيل يكون بادرة طيبة لدور تقوم به دولة صديقة للطرفين - يعنى فنلندا !

واتجه فكري إلى وجهة أخرى - قابلت زميلي سفير الهند وكان صديقاً كريماً ودبلوماسياً كفواً - وقلت له أنتى متنازل عن أقدميتى بحيث يقف قبل في المناسبات الرسمية ، فنحن قديماً أوراق اعتمادنا في نفس اليوم ، وكل ما في الأمر أنتى أسبقه بنصف ساعة فقط ، فوافق على الفور وبذلك سروراً شديداً .

وفي يوم استقبال الرئيس الضيف ولقنا صفياً طويلاً ، أكثر من ستين سفيراً معتمداً حسب الأقدمية ، وانفجرت مدير المراسم أنتى بادلت أقدميتى مع سفير الهند ، ولاحظ سفير إسرائيل بذلكته بأن الذي يقف بجواره سفير الهند ، وأصبح بين مصر وإسرائيل شبه القارة الهندية بأسرها . - وفهم سفير الهند سر التغيير واتسجم .

كان هذا عام ١٩٦٩ ، وهو ما يكشف عن عمق التغيير في الخط الرسمي ، الذي اتجهت الرئيس السادات تجاه إسرائيل ابتداءً بزيارة القدس في نوفمبر ١٩٧٧ وانتهاءً بتوقيع اتفاقية السلام معها في مارس ١٩٧٩ .

وبعد نحو عام ونصف علمت أن سفير إسرائيل قد نقل إلى منصب آخر ، وتلقينا دعوة لحضور حفل افتتاح البرلمان وتوجيهنا إلى ذلك الحفل الكبير وأخذ السفراء يأخذون مواقعهم حسب ترتيب أقدميتهم ، وغدنت قلت لزميلي سفير الهند إن يعود لأقدميته بعدئى وعندما اتدهش قلت له أن الظروف قد تغيرت . . ففهم وقال : كم ستدفع عن هذه المدة ؟ وايسمنا نحن الاثنين ،

الرياضة الشتوية

في شتاء كل عام تدعو وزارة الخارجية الفنلندية رؤساء البعثات الدبلوماسية المعتمدة في فنلندا وكبار معاونيهم وعائلاتهم لمشاهدة مسابقات الانزلاق على الجليد في مدينة «لاهتي» في غرب فنلندا، وتخصص لهم قطارا يستغرق نحو ساعتين في كل من الذهاب والعودة.

والواقع ان الشعب الفنلندي مثل باقي شعوب الشمال رياضي بطبيعته، فتراهم رغم قسوة الشتاء وطوله - أحيانا بسببها - يمارسون رياضات العدو والمشي والتزلج على الجليد في الهواء الطلق والتشي والأسكواش في الملاعب المغطاة والسباحة في البحر صيفا وفي حمامات السباحة المغطاة والمقاهي طوال العام. وكان رئيسهم آنذاك «إرهو كيكوتي» وقد جاوز السبعين عاما بطلا من أبطال الرياضة في صباه وظل يمارس الرياضة حتى في سنه المتقدمة.

ركبت وزوجتي والأولاد قطار الرياضة، وتجمعنا مع أصدقائنا من السفراء الآخرين وعائلاتهم. وكان رجال المراسم من الخارجية الفنلندية يرحبون بضيوفهم من السلك السياسي وقد زودوا المقاعد بالشرروبات والبطائر والمربطات.

توجهنا عند وصولنا إلى «لاهتي» إلى ساحة مكتشوفة صفت فيها مقاعد خشبية. جلسنا نتطلع إلى المتسابقين وقد أعدت لهم منصة عالية يقفون منها على منحدر يكسو الجليد قطيعيون. في الهواء في توازن رائع حتى يسقطون برحابتهم على الجليد. ويحدد الحكام نقطة التماس هذه لكي يقيروا بين أداء المتسابقين، ويحددوا الفائزين الأوائل منهم.

وعلى الجانب الآخر جلس آلاف المتفرجين من أبناء الشعب الذين تواجدوا لمشاهدة تلك المناسبة الرياضية الشتوية الكبرى.

كان الجو شديد البرودة حول درجة الصفر، أو أقل قليلا، ولكنه كان منعجلا، وكنا نجلس لابسين المعاطف الثقيلة والقبعات المتدلية حول الأذان والكوفيات والقفازات، وكانت زوجتي تضع على رأسها قبعة من الفراء السميك

وتدثر بشمال كبير أبيض من الصوف فوق المعطف، كما تغطي البطاطين على أرجلنا التي لا تكاد تحس بها من شدة البرد. ولكن المشاهد الرائعة والقفزات المذهلة التي تأخذ بالآليات تصرف الانتباه عن الأحساس ببرودة الجو. ولأحضرت أن بعض السفراء من العارفين الذين خاضوا التجربة من قبل ذلك قد أحضروا معهم وسائل تدفئة أخرى.

وجاء مصورو الصحف والمجلات يأخذون صورا تذكارية لأعضاء السلك الدبلوماسي ولا سيما الذين يبدون غريبا من الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية. ويسألونهم عن إطباعاتهم عن تلك الرياضة العنيفة التي تحتاج إلى تدريب شاق ولا تخلو من مغامرة.

وكان الرئيس الفنلندي يجلس في المقصورة ونحن إلى جواره يتابع الدورة حتى ينتهي السباق ويوزع الكأس والجوائز على الفائزين.

وفيما جاءنا مندوبي المراسم ودعونا لتناول طعام الغداء في نادي يديّة المدينة، فكان ذلك إشارة لنا من الجلوس في البود القارسي، وتوجهنا إلى المطعم حيث الدفء والأكل والشراب.

كان يوما ممتعا رائعا اندمجت فيه الأسرة الدبلوماسية ورجال إدارة المراسم بأديهم وكرمهم، وشاهدنا كيف تنهض الشعوب بالرياضة فالحقل السليم في الجسم السليم.

وتذكرنا أثناء جلوسنا في قطار العودة أن زوجتي قد شجيت الشال في مكان ما، وقالت لزميلاتها ما هو الشال الذي كنتم تحسدونني عليه قبل فقدتي، وضحكنا جميعا على أن الحسارة جاءت في الشال، وليست القبعة الغرو الغالية مثلاً. . . وانتهى الأمر.

وبعد بضعة أيام جاءنا بريد السفارة وبه طرد محلي وعندما فتحتة السكرتيرة كانت المفاجأة. فقد عاد الشال. ولكن كيف عاد؟ كان معه كتاب باللغة الفنلندية اتضح من ترجمته أن سيدة من أبناء البلدة من المتفرجين وجدت الشال. وفي اليوم التالي نشرت الصحف صور شخصيات السلك الدبلوماسي من الضيوف فلاحظت السيدة الذكية أن الشال توديه حرم السفير

المصري فيعشت به إلى السفارة المصرية في هلسنكي .

مستوى عال من الامانة يتمتع به الشعب الفنلندي بشكل مدهل . وكانوا يندفسون عندما وصلت من اوغندا واقوم بإحكام قفل سيارتي الخاصة عندما اترك منها خشية سرقتها ! وانا لا اقول هذا لاعادة الشال ، وإنما هذه الحادثة تثبت اقتناعي في ارتفاع مستوى الصدق والامانة لدى الفنلنديين . ذلك الشعب الصغير الذي لا يزيد عدد سكانه انذاك - اى عام ١٩٧٠ - على ستة ملايين - وأرجو أن يظل محافظا على قيمه ومثله .

وقد سألني البعض ماذا فعلتم للسيدة التي أرسلت الشال ، والرد أن أرسلنا لها بعض الهدايا من الحل الفرعونية رغم أننا تعلم أنها لم تكن تنتظر شيئا - فهل تدلوني على بلد في وقتنا هذا يمكن أن يحدث فيه مثل هذا الامر ؟

السونا الفنلندية

كثت قد سمعت كثيرا عن « السونا » الفنلندية ولكن لم تكن قد شيعت في فرصة تجربتها - وما انذا في هلسنكي أجد السونا في كل مكان ، إنها في الواقع مؤسسة قومية

جميع الفنادق مزودة بحمامات « السونا » ولا يخلو منزل فنلندي ريفي في القابات ، على المصبرات ، أو على ساحل بحر البلطيق أو في الجزر المتناثرة على طول ذلك الساحل من كابينه « السونا » - ولا تخلو الأحياء من حمامات السباحة المدفأة المغطاة الملحق بها عدد كبير من حمامات « السونا » أحدهما مخصص للرجال والآخر مخصص للنساء .

وقد تطورت « السونا » فيعد أن كانت المواقد التي تغذي غرفة البخار توقد بالخشب أصبحت تشغل بالكهرباء ويوضع فوقها أحجار خاصة تساعد على رفع درجة الحرارة في الغرفة . وما زالت تلك « السونا » القديمة موجودة ببعض المناطق بالريف ويخرج منها الشخص مغلفا بالسواد من هباب الأخشاب من جذوع الأشجار وتسمى السونا السوداء ، وما زال البعض في فنلندا يقول أنها أصح من « السونا » ذات الموقد الكهربائي .



GENERAL LAYOUT OF THE SAUNA OF THE FINNISH CABLE WORKS

رسم تخطيطي للسونا الفنلندية

وترتفع درجة الحرارة في غرفة « السونا » إلى نحو مائة درجة - ويجلس المستحمون في صمت فوق مقاعد خشبية لمضعة دقائق ثم ينصرفون لأخذ دش ، والسباحة في حمام السباحة أو البحر أو البحيرة بحسب الأحوال ، ثم يعودون مرة أخرى إلى غرفة البخار ، ثم إلى الماء البارد وهكذا مرثان ، أو ثلاث على الأكثر ، ثم يجلسون في استرخاء لبعض الوقت ويتناولون بعض المشروبات الخفيفة أو البيرة . وإذا كانت « السونا » في نادي خاص أو فندق ، فيعد الدش ، أو السباحة يغتسلون ، ويوجد متخصصون في التدليك من الجنسين .

وأذكر أنني ذهبت مرة مع صديق لي سفير إحدى الدول الآسيوية إلى « السونا » في حمام السباحة القريب من مكاتب السفارة . وبخشنا غرفة البخار وجلس إلى جوارى يتحدث طوال الوقت بصوت مرتفع على خلاف المألوف ، وكنت أستمع إليه صامتا . فلما كان من أحد الحاضرين إلا أن أخذ يصيح ماما على الأشجار الموضوعة فوق الموقد ، فاشتدت درجة الحرارة في الغرفة وتجاوزت المائة درجة ، ولم يحتمل صديقي شدة الحرارة ، واستأن في الانصراف مهولا من الغرفة على عجل .

وغرفة « السونا » الحرارة فيها جافة . وليست كالحمام التركي مليء ببخار الماء - وقد اكتشفنا بعد أن اعتدنا على « السونا » أنه ليس صحيحا المبالغة في البقاء في حمرة البخار الشديدة الحرارة مدة تزيد على بضع دقائق - ثلاث دقائق مثلا - ثم الخروج وذلك على عكس الحمام التركي . وهناك خطأ شائع يقع فيه الغرباء ، وهو أنهم يظنون أنه من المفيد صحيا المكوث داخل غرفة البخار أطول مدة ممكنة كدليل على قوة الاحتمال .

و « السونا » في فنلندا هي صناعة متقدمة . فهناك عشرات النماذج من غرف « السونا » الخشبية المجهزة للتجميع والمواقد الكهربائية . وهناك شركات متخصصة في تصدير « السونا » للخارج حيث اشتهر عليها الأقبال في ألمانيا الغربية وكندا والولايات المتحدة الأمريكية . والفنلنديون ذوو خبرة تكنولوجية في توصيلاتها الكهربائية وتصريف المياه خاصة بالنسبة لحمامات السباحة التي تقام بالطوابق العليا من الفنادق والمؤسسات .

ولا شك أن للسونا فضلا عن النظافة فوائد صحية . فهي تقليد في علاج

بعض أعراض المعدة واليزد ، كما تساعد - بتقل الشخص بين الحرارة الشديدة والماء البارد - على تنشيط الدورة الدموية . كما أن لعملية التدليك فوائد لعضلات الجسم وفقراته .

والسونا الفنلندية طقوسها . فأذكر أنني - وكنت حديث العهد في هلسنكي - ذهبت للمنزل الريفي لبعض الأصدقاء وكانت السونا على مشارف بحيرة صغيرة يحيط بها عدد من المساكن بين الأشجار والأعشاب كلوحة طبيعية تأخذ بالآنياب . . كنت أسيح بالبحيرة قرب « السونا » عندما سمعت ضربا داخل غرفة بخار « السونا » . فأثارت دهشتي أن يكون عراقا قد نشب . فخرجت من الماء وسارعت بالدخول فوجدت أحد الضيوف الفنلنديين يضرب نفسه ضربا مبرحا بحزمة من قروغ أشجار ، يقول « ياوراقها الخضراء الزاهية ذات الرائحة الهادئة المعطرة . وقد تعلمت أن هذا من تقليد « السونا » عندهم حيث أن هذا الضرب على أجزاء الجسم يساعد على تنشيط الأوعية الدموية والاسترخاء بعد ذلك .

ومن أمتع وأحدث نماذج « السونا » تلك القائمة في فندق « كالاستاتوريا » . وهو من فنادق الضيافة الرسمية ، ويقام في أجمل ضواحي هلسنكي ، وغرف الاستجمام بعد « السونا » تطل على خور من بحر البلطيق في جمال لا نهائي أخاذ . وفي حمام سباحة مغطى في الدور الأرضي بجوار غرف « السونا » ، وكان مكاني المفضل لممارسة « السونا » لقربه من السفارة .

وعندما ذهبت إليه أول مرة ومعني سفير صديق لي من دولة أمريكية لاتينية انتهينا من « السونا » وخرجنا من حمام السباحة ، وتوجهنا إلى غرف الغسيل وهي غرف مستقلة ، ودخلنا بالمياه وفي كل غرفة سيدة كبيرة في السن مقنولة العضلات ترتدي زيا كالمعرضات ، فاضارت بيدها ولم أفهم ما تعنيه ، وانضح أنها لا تتكلم أية لغة سوى الفنلندية . ثم فهمت من الإشارات أنه لا بد من الناحية الصحية لغسيل الجسم بالصابون والليفة من خلق المياه .

وبعد انتهاء الغسيل سكبت على المشرقة عدة دلاء من الماء وأرتديت المياه . وتوجهت إلى غرفة التدليك استكمالا للتداوي . فوجدت القائمة بالتدليك شابة جفيلة في مقتبل العمر ، ورأيت تقاديا من الحرج الذي حدث مع



DIPLOMA

Be it hereby known to all who doubt but seek the truth that on this
7th day of the month of AUGUST in the year 1974.

HIS EXCELLENCY

GAMAL-ELDIN BARAKAT

did without constraint or undue persuasion, be it from the Spirits or from
Spirits, undergo the Purgatory of the Finnish Sauna, passing stark naked
through all the stages, from the Lowest to the Highest, to attain the
Transcendental State, being herewith initiated in the following ancient rites:

First underwear	UNRELIABLE
Self torture with a birch whip	FANTASTIC
Cold shock to the face at	10°C
Signs visible in the snow at	—
Colors in consciousness	SHIFT

We, the undersigned, who bear witness to the victim's trials and suffering,
declare that having given the afore-said proofs of Maturity, Endurance,
and Moral and Physical Hardiness.

SIR GAMAL-ELDIN

is now a full member of the

ORDER OF THE FINNISH SAUNA BATH

and we do ordain that he shall enjoy without restraint the innumerable and
unfathomable privileges of the afore-said Order

Westerlund
Member

Westerlund
Chairman

شهادة دبلوم عضوية «فرسان حمام الأحجار الساخنة»

Chairman of the Bath

المشرفة على الغسيل وعدم التماس بلغات الجنينة أن أبادر إلى خلع الملابس قبل
الاستلقاء على سرير التدليك. وما أن شرعت في ذلك حتى صرخت المجرعة
الحسنة. وقالت لي باللغة الانجليزية أنه لا حاجة لي لخلع الملابس. وأن
التدليك يتم وأنا محتفظ به. وطبعاً أحمر وجهي خجلاً. وأخذت أشرح لها
تجربتي مع المشرفة على غسيل البدن. وخرجت بعد فترة التدليك وقد بقيت
عظامي ثلث عدة أيام من أصابعها الرقيقة. ويظهر أنها أعطتني جرعة زائدة
بعض الشيء.

وفي المنزل الضيق لدى إحدى صديقاتنا - أرملة فقيرة فنلندية في
باريس - وكانت «سونيا» سيدة مجتمع من الدرجة الأولى - تجمعنا في
«السونيا» سفراء يمثلون قارات العالم جميعاً فكان هناك سفراء بريطانيا
والبرازيل وعضو رومانيا والهند واليابان! وعلق أحدها قائلاً: قد اجتمعت
الأمم المتحدة متحدة من مشاكل السياسة الدولية وصراعاتها - عازاً
لو اجتمع رؤساء الدول في «السونيا» لعل غسيل النفوس يؤدي إلى إنقاذ
البشرية مما يتهدهدها من حرب نووية.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فمن المألوف أن يجتمع مجلس الوزراء
الفنلندي بعد «السونيا» في قاعات الاستجمام والاسترخاء المخصصة لجماعات
«السونيا». ويقال أن أدائهم وإجازتهم يفوق اجتماعاتهم العادية!

وبعد أن أمضيت نحو أربع سنوات في فنلندا منحت في أغسطس ١٩٧٢
شهادة دبلوم عضوية «فرسان حمام الأحجار الساخنة». وتضمنت الشهادة
بيانات مثل احتمال الحرارة والضرب بأوراق البتولا وصدمة الماء البارد
والإفافة بعد ذلك من الصدمة. وقد وقع الدبلوم صديقنا مستر «ويستلند»
الرئيس العام لشركات «توكيا» أكبر مجموعة شركات صناعية في فنلندا.

شيء واحد لم أستطعه وهو سونا ثلاثيات البحر في الشتاء - فهناك
حمامات «سونيا» تقام على الشواطئ. فإذا أقدم الشتاء تجددت المياه إلى
جوارها فيقوم الفنلنديون بشق حفرة واسعة في الجليد ويوصلون إليها المياه
الساخنة حتى تظل مفتوحة. وينزلون فيها قابعين من «السونيا» في درجة
حرارة منخفضة للغاية تحيط بالحفرة الثلوج من كل جانب بينما درجة حرارة

الجو نفسه حولهم تحت الجفوف . كما أنه من الجفوف في ليالي الشتاء وفي المنازل في الضواحي وعطلات نهاية الأسبوع ورأس السنة أن يخرجوا من حمام السونا ، للتمتع في الجيب وبقدر أن يصابوا بالانفلونزا أو الغزلات الشعبية بل تكسبهم الصدمة صلابة وطول عمر .

الفنلندية

فنلندا اسمها باللغة الفنلندية ، سويدي ، ومعناها بلاد البحيرات إذ يتأخر عددها ٦٠٠٠٠ بحيرة . وتكسو الغابات أكثر من ثلثي الأرض ، ولذا تشكل الأخشاب أهم الصادرات ، وكذا مشتقاتها من الورق وباب الورق . ومن المظاهر المألوفة مساعدة ضروع الأشجار طافية فوق الأنهار تنقلها نيارات المياه إلى المصانع في الجنوب .

وفي الشتاء يتجمد بحر البلطيق ، وتبدو هلسنكي ناصعة البياض . وقد غلغها الجليد متراكماً فوق الأسطح وكاسيا الطرقات ومتدلياً من الأشجار أما الأقليم القطبي الشمالي فيكون جزءاً من إقليم « لايلاند » حيث يسكنه قبائل اللاب الرحل الذين يقومون بتربية قطعان الرنة .

عدد السكان أثناء مدة خدمتي في أواخر الستينات وأوائل السبعينات كان يبلغ نحو خمسة ملايين ونصف مليون نسمة . يتكلمون اللغة الفنلندية ويتكلم سكان المنطقة الغربية - توركو العاصمة القديمة وما حولها اللغة السويدية بالإضافة إلى اللغة الفنلندية . وكانت اللغتان قد اعترف بهما كلغة قومية في دستور عام ١٩١٩ .

والكلمات في اللغة الفنلندية طويلة بحيث يضطر المتحدث أن يقطع نفسه حتى يستكمل الكلام . وأذكر أنه في اللغة الانجليزية كنا نحصى الكلمات التي تزيد عدد حروفها عن ١٥ حرفاً ، أما في اللغة الفنلندية ، فذلك أمر مألوف .

وأقرب اللغات إلى اللغة الفنلندية هي اللغة المجرية . وبالنظر إلى صعوبة اللغة الفنلندية وقلة استخدامها . فإن الشعب الفنلندي له قدرة على تعلم اللغات ، وغالبية أبناء الشعب يتكلمون أكثر من لغة غير السويدية مثل

الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية - وهذا ما جعل حصيلتي في اللغة الفنلندية بعد خمس سنوات لا تزيد على بضع كلمات .

وقد لفت نظري أن دول الشمال الخمس - فنلندا - السويد - النرويج - الدانمارك - أيسلندا - تتكلم خمس لغات مختلفة رغم أن مجموع عدد سكانها آنذاك كان لا يزيد على ٢٨ مليون نسمة ، أي أقل من عدد سكان الشعب المصري الكريم ! صحيح أن اللغات فيها تقارب ولكنها ليست مجرد لهجات . وطبعاً أن أوسع اللغات الاسكندنافية انتشاراً هي اللغة السويدية بحكم أن سكانها أكبر عدداً (حوالي ١٠ ملايين) كما أنها كانت محطة لفنلندا لعدة قرون ، حتى بداية القرن التاسع عشر .

وكان المسئولون الفنلنديون يندفسون عندما يجدوني أتكلم مع سفير العراق وسفير تونس نفس اللغة ، بينما لا يتكلمون هم مع اقربائهم من دول مجلس الشمال نفس اللغة .

والشعب الفنلندي بروتستانتى ، ولكنه ليس موافقاً على الذهاب للكنيسة أيام الأحد .

والكثافة السكانية خفيفة بحيث تسافر بالسيارة عشرات الكيلومترات ، ونادر على قرى مكتوبة على الخريطة ، ولكنها على الطبيعة لا تتجاوز بضعة متازل متناثرة على الطريق . ومعظم العمار في المثلث الواقع بين هلسنكي في الجنوب ، وتامبيرى ، قليلا إلى الشمال ، وتوركو ، على الساحل في الغرب .

وكل عائلة تقريبا حتى متوسطى الحال يملكون منزلاً صغيراً على أحد الشواطئ ، أو البحيرات أو في الجزر .

وهناك جالية مسلمة من أصل تركي يتأخر عددها بضع مئات ، وهي جالية فيسورة الحال يُعتقد أنها ترحلت إلى فنلندا من مناطق الأورال عند قيام الثورة البلشفية ، ويشغل غالبية أفرادها في تجارة القراء ، ولديهم جمعية يرأسها « آل علي » تمتلك بناية كبيرة تؤجر الأدوار الأرضية فيها للمهاجر ، ول دور العبادة مسجد يؤمه أعضاء الجمعية لاقامة الشعائر الدينية والاحتفال بالأعياد الإسلامية . ويتكلم أفراد الجالية اللغة الفنلندية ، ويتحدثون كذلك

اللغة التركية ، ولكن يكتبونها بالحروف العربية القديمة ، وليس بالحروف الهجائية الألفبائية التي استحدثها الرئيس كمال أتاتورك

والصيف في فنلندا قصير لا يتجاوز ٧٥ يوما في السنة ولكنه ممتع ، والنهار طويل ، ولذا فإن الزراعة التي يشتغل بها نحو ٧٠٪ من السكان تزور المحاصيل المناسبة خلال هذه المدة وتحصدنها بنهايتها - كما أن لديهم صناعة متقدمة للآليات ومشتقاتها .

ويحتفل الفنلنديون احتفالا شعبيا بأطول يوم لا تغرب فيه الشمس - في الأسبوع الأخير من يونيو من كل عام - فيتوجه سكان هلسنكي إلى جزيرة « سوه ساري » وهي منزلة عام حيث تصدح الموسيقى ، وتقدم الفرق الفنية بعض عروضها المسرحية وتقدم الكافريات السندوتشات والسجق والبيرة . ويتجمع المحتفلون حول الجزيرة في مئات من المراكب الصغيرة واللنشات والقلايك - وتظل الشمس ساطعة في السماء ، حتى إذا اقترب منتصف الليل أشعلوا النار في أكوام متناثرة من الحطب ويجذوع الأشجار وعلا الصباح والغناء . - ومن المألوف أن يسقط بعض المحتفلين من القوارب في الماء في غرفة السعادة وينشوة الاحتفال . - ولا يكاد ضوء الشمس يخبو وينتشر الخسوف حتى تبدأ تباشير الفجر في الطلوع بعد منتصف الليل بقليل إذ أنها بإشراقه يوم جديد . - ويأخذ المحتفلون في الأياب إلى منازلهم في وضخ النهار .

ولذا فإن الزائر لتلك البلاد في ذلك الوقت من السنة لابد - لكي يأخذ قبسطه من النوم - ألا ينتظر حتى تعتم الدنيا لأن الظلمة لن تكون خالكة ، وعليه أن يلتزم بالساعة ، فينام ويصحو في ضوء الشمس اكتفاء بإسدال الستائر الكثيفة على الفوائد لحجب الضياء . إذ يمكنه قراءة الصحف في ضوء الطبيعة قرب منتصف الليل .

ومن مواسمهم التي يحتفلون بها الـ Cray Fish Season وهو نوع خاص من المأكولات البحرية حجمها وسط بين الجمبرى وأبو جملبو تقدمه الفنادق والطعام في العشاء ، وتترى كثير من الحلات والأسواق وقاعات الطعام والموائد باللون الأحمر ، وهو سمة ذلك النوع من مأكولات البحر .

يخدم في أطباق خاصة مع الخضصة ، وكسارات مثل كسارات البطاق بدلا من السكاكين لكسر الأصناف وأكل ما بداخلها .



أما عن الناحية السياسية فإذا رجعنا إلى تاريخ فنلندا لوجدنا أن السويديين غزوا فنلندا في القرن الثاني عشر الميلادي ، وبقيت من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر دوقية سويدية كبرى تتمتع بالحكم الذاتي .

وفي عام ١٨٠٩ استولت عليها روسيا وأصبحت دوقية روسية كبرى حتى حصلت على استقلالها من السوفييت بعد ثورة ١٩١٧ .

ثم قامت جرب أهلية بين مؤيدي الروس (الأحمر) والقوميين الفنلنديين (البيض) انتصر فيها القوميون وانتخب أول رئيس للجمهورية عام ١٩١٩ واعتزقت روسيا باستقلال فنلندا عام ١٩٢٠ .

وقد شهدت فترة الحرب العالمية الثانية هجوما سوفيتيا في نوفمبر ١٩٣٩ على شرق فنلندا إلتأين حدود الاتحاد السوفيتي الشمالية الغربية . وبعد مقاومة يأسلة انهزم الجيش الفنلندي ، ووقعت معاهدة موسكو في ١٢ مارس ١٩٤٠ تنازلت فنلندا بمقتضاها عن مناطق كاريليا الشرقية .

وفي عام ١٩٤١ دخلت القوات الألمانية فنلندا . وعندما هاجمت ألمانيا الاتحاد السوفيتي في يونيو ١٩٤١ كانت قواتها متمركزة في فنلندا .

وللمرة الثانية حاربت القوات الفنلندية السوفييت واستعادت في البداية جزءا من أراضي كاريليا الشرقية غير أن هزيمة ألمانيا في شتاء ٤٢ - ١٩٤٣ ونجاح القوات السوفيتية في دخول شرق فنلندا في عام ١٩٤٤ أدى إلى توقيع الهدنة في سبتمبر ١٩٤٤ والاعتراف بمعاهدة موسكو لعام ١٩٤٠ .

ورفض الجيش الألماني ترك البلاد ، وعاث في شمال فنلندا تخريبا أثناء انسحابه ، وأخيرا وقعت اتفاقية السلام في باريس في ١٠ فبراير ١٩٤٧ .

وفي ربيع ١٩٤٨ وقعت اتفاقية صداقة وشعار ومعونة متبادلة بين فنلندا

والاتحاد السوفيتي ، وهي التي تحكم العلاقات بين البلدين حتى الوقت الحاضر .

أما عن نظام الحكم فهو النظام الجمهوري الرئاسي الديمقراطي القوي . وتشكل الوزارة من حزب الأغلبية يرأسها رئيس الوزراء . وهناك العديد من الأحزاب : الحزب الزراعي أو الوسط ، والاشتراكي الديمقراطي والحزب الشيوعي . وعدد من الأحزاب الصغيرة المنسقة . ومن العسير أن يحصل حزب واحد على الأغلبية الساحقة بحيث يشكل الحكومة . بل المألوف أن تشكل الحكومة من أكثر من حزب بحيث يكون الائتلاف الحظية في البرلمان لتولي الحكم . ويراعى في ذلك عدة اعتبارات وتوازات سياسية داخلية .

والرئيس الفنلندي صلاحيات واسعة في مجال الشؤون الخارجية . وقد انتخب زعيم حزب الوسط آرهو كيكونين - وهو من مواليد عام ١٩٠٠ - رئيسا للبلاد عام ١٩٥٦ . وهو شخصية منفردة ذو إدراك واسع بمجريات الأمور العالمية . وقد نجح في تسير دفة الحكم في بحار صعبة وتيارات داخلية متضاربة . وفي قيادة شعب يكاد كل فرد فيه أن يشكل حزبا لذاته .

وقد قدمت له أوراق اعتماد في عام ١٩٦٨ وغادرت فنلندا بانتهاء مهمته عام ١٩٧٣ . وبقي رئيسا للبلاد حتى عام ١٩٨٢ أي لمدة ٢٦ عاما .

وقد نجح الرئيس كيكونين بصفة خاصة في كسب ثقة جيوانه السوفيت ، وتحسين علاقاته بالغرب فحدثت المصادقات التمهيدية لمؤتمر الأمن والتعاون الأوربي في هلسنكي في نوفمبر عام ١٩٧٢ التي استقرت بدورها عن عقد مؤتمر قمة في بوليه / أغسطس ١٩٧٥ حضره ٢٥ رئيس دولة من أوروبا وأمريكا الشمالية على نحو غير مسبوق في التاريخ الدبلوماسي .

وقد توفي كيكونين أخيرا في أغسطس ١٩٨٦ .

وقد حاول الخط الرسمي للسياسة الخارجية الفنلندية جاهدا أن يتبع سياسة الحياد . وفسر ذلك الحياد على أنه مزيج من الحياد الإيجابي وعدم الانحياز مع الابتعاد عن التكتلات والحوار العسكرية .

وفي نفس الوقت تأخذ تلك السياسة في اعتبارها الصداقة والتعاون مع

الاتحاد السوفيتي . وقد وصفت تلك السياسة « بالفنلندية Finlandization » وكتب في شرحها الكتب والمؤلفات بين محبة ومعلق ومبتعد . وقد قصد بها أن تكون نموذجا لعلاقة السوفييت بفنلندا بحيث تتحدى بها الدول الأوروبية الأخرى المجاورة للسوفييت والتي تتعرض بحكم الجوار لضغوط سوفيتية . والهدف من تلك النظرية الاقتراب من نموذج سويسرا والنمسا في الحياد ولكن مع القيام بدور نشيط في تخفيف التوتر والتهدئة بين الشرق والغرب والحفاظ على علاقات طيبة مع الجارة الكبرى .

وقد لاحظت - رغم كل ذلك الجهد من جانب المسؤولين الفنلنديين - أن الانطباع الغالب في العالم الخارجي عن فنلندا أنها بلد شيوعي ضمن المنظومة الاشتراكية وهو أمر مخالف للواقع : فنلندا من حيث نظام الحكم وأسلوب المعيشة بلد ينتمي للغرب بكل المقاييس .

طبعاً هناك حزب شيوعي ، ولكن قوته لا تزيد على ١٥٪ من مجموع الناخبين . وتكاد تكون هذه النسبة ثابتة دون إحرار أي تقدم . والتجارة مع السوفييت تبلغ نحو ٢٠٪ من إجمالي تجارة فنلندا . ولكن الاتحاد السوفيتي يشكل قوة داخلية ضاغطة ومؤثرة . فلا يمكن مثلاً تشكيل وزارة معادية للسوفييت . والسفارة السوفيتية في هلسنكي عيني هائل يضاهي في ضخامته وزارة الخارجية الفنلندية ذاتها . ولكن الشعب شديد الانفرادية وأبعد ما يكون عن التوجه الاشتراكي .

ولذا فكل الحديث عن الحياد والفنلندية لا يغير من الواقع شيئا إذ مازال من المشكوك فيه كثيرا اقتناع الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة بحياد فنلندي حقيقي في مواجهة الحوار السوفيتي الذي هو حقيقة تاريخية فرصتها الظروف الجغرافية ، ولا سبيل إلى تجاهلها أو التقليل من ثقلها .



أما عن الناحية الاجتماعية فالشعب الفنلندي يتسم بالنزاهة والبساطة والواقعية ، وليس ميالا للبدع أو المظهرية . ومن الطبيعي أن تحكمه ظروفه المناخية . فلهو الشتاء الطويلة تتميز في البداية : نوفمبر - ديسمبر بالظلمة

الذاكرة . ثم تتساقط بعد ذلك الثلوج بغزارة وتسقط الشمس الباهتة في فيزايز - عازس .

وقد عودت تلك الطبيعة القاسية الشد على الجلد والمثابرة وقوة الاحتمال . فتجد بعض هواء صيد الأسماك يسفر ثقباً في الجلد يدب منه السفارة لكي يصطاد الأسماك الصغيرة التي تعيش في المياه الجارية تحت الطبقة الجليدية المتجمدة على السطح . ويجلس لساعات طويلة في البور اقمارس يمارس تلك الهواية .

أما شهور الصيف : يونيو - يولية فانها تعرض من طولها . ونهارها أطول من ليلها .

وقد ترك ذلك الطقس بصماته على طباع الشعب ، وعزلته التسبية عن العالم الخارجى .

كما دفع الجو الشديد البرودة الكثيرين إلى تناول المشروبات الروحية . ولديهم إنتاجهم الخاص من الفودكا . ول الرف لديهم مشروب كحولى يستخرج من جذوع الأشجار في الغابات . ويشيع أن الحكومة تحاول الحد من تداول الخمر وبيعها في متاجر خاصة خصصا شهريا لأفراد المواطنين . ولكن مع كل النوايا الحسنة والجهود المبذولة ظلنا بقيت فنلندا على مشارف الدائرة القطبية بقى تناول المشروبات الروحية في شء من الإسراف أحيانا عادة اجتماعية لا سبيل إلى درئها وإنما التخفيف من مضارها .

هذا وقد أقمتا وزوجتى علاقات قوية مع الكثيرين من الأصدقاء الفنلنديين ما زالت مستمرة . ومحل اعتزازنا إلى يومنا هذا بعد أكثر من عشر سنوات على مغادرتنا هلسنكى في عام ١٩٧٣ .

نافذة على الشيوعية

لم تنهيا في فرصة العمل في الدول الشيوعية . والواقع أنه لا يمكن للدبلوماسى المتدرج خلال مدة خدمته بالخارج وهي حوالى ربع قرن - حيث يبقى في كل بلد أربع سنوات في المتوسط - أن يخدم في جميع مناطق العالم . ولما كنت قد سبقت إلى الخدمة سنوات طويلة في كل من لندن وواشنطن فرايت ، انتهاز فرصة وجودى في هلسنكى لكي أزرر الاتحاد السوفيتى . فعلا زرت لينينجراد وموسكو أكثر من مرة أعوام ٦٩ - ١٩٧١ لفترات قصيرة بطبيعة الحال .

سافرت وزوجتى بالقطار إلى موسكو . ويترك القطار يومنا من هلسنكى الساعة الثالثة بعد الظهر . ويصل إلى لينينجراد صباح اليوم التالى وإلى موسكو عند الظهر .

وصالوات عزيزة النوم نظيفة والخدمة جيدة . وطبعاً لا يتكلم عمال البوفيه سوى اللغة الروسية . ولا توجد قاعة للطعام . وإنما يقدمون الشاي في الأكواب الروسية التقليدية والفطائر ويمكن عند توقف القطار في بداية الحدود الروسية لبعض الوقت النزول وشراء السندوتشات الروسية من الجبن والسلاسل الشهيرة .

وموسكو مدينة واسعة وشوارعها قسيحة ونظيفة ويمر وسطها نهر وهو فرع من نهر الفولجا ومبانيها ضخمة . والأحياء الجديدة كلها عمارات نظمية متكررة الطوايق .

زرتنا المتاحف التى تضم مخلفات الأسرة المالكة في الكرملين وشهدنا أكثر من حفلة من حفلات الباليه : الجمال النائم وكسارة البندق في مسرح البولشوى القديم . ومسرح البولشوى الحديث ويسع ٦ آلاف متفرج . وقد شئد المسرح بعرض الصالة وأدخلت فيه أحدث طرق تكبير الصوت والتكييف والإضاءة وضمنت له مقاعد وفداخل كثيرة بحيث لا يستغرق دخول وانصراف المتفرجين أكثر من دقائق .

كما شاهدنا السيرك الروسي الشهير ، وأسواق المدينة المغطاة ، الجوامع ، وأهم معالمها : جامعة موسكو ، وقصور الضيافة والاستاد ومجمعات السباحة المكشوفة المدفأة ، الخ .

كان الأداء في الباليه موسيقى وركضا غاية في السمو والافتقار . وقد سألت مرافقي ماذا يحدث لو أن الرافضة الأولى مرضت هل يؤجل العرض (كما يحدث في بلاد أخرى) فقال لي أن الدور الرئيسي يدرّب عليه خمس راقصات ، ولو اعتذرت واحدة قامت به إحدى البدائل .

وقفنا في الطابور الطويل الذي لا ينقطع لزيارة قبر لينين الواقع في قاعة في سور الكرملين . وقد حظ الجثمان ليشاهده الملايين . ونزلنا المترو تحت الأرض ، وقد كسيت جدران بعض محطاته بالرخام الملون ووضعت التماثيل .

يقوم الدبلوماسيون (غير رؤس البعثة) في مساكن توفرها لهم الحكومة حسب ظروف كل عضو الاجتماعية - متزوج أو أعزب ، منجب أو غير منجب . عند الأولاد المصاهبين ، الخ ولا سبيل أمام العضو لايجاد سكن بغير تدخل وزارة الخارجية حيث توجد عمارات ضخمة يقصر السكن فيها على الدبلوماسيين الأجانب .

كما توجد قيود على انتقال بعض الدبلوماسيين كالأمريكيين بحيث لا تزيد المسافة المسموح بها على ٢٥ ميلا خارج مدينة موسكو .

العمارة في موسكو لها أسلوب مميز ومن أضخمها مبنى وزارة الخارجية السوفيتية ومكاتب الكوميكون ، مجلس التعاون أو التضامن الاقتصادي للدول الاشتراكية الذي تأسس عام ١٩٥٩ الفنادق قطاع عام ، والمحلات التجارية قطاع عام ، ومحلات بيع التحف القديمة - القومسيون - تديرها الدولة أيضا .

أما لينينجراد - وكانت في الماضي بطرسبرج العاصمة الامبراطورية القديمة - فمدينة حذية عريقة في أصلاتها فيها مسحة المدن الأوروبية الغربية الكبيرة ، وتنتشر فيها القصور والحدائق العامة وهي تطل على بحر البلطيق ، وبها قطع بحرية من الأسطول السوفيتي وتربطها بهلستكي خلال أشهر

الصيف رحلات يومية بالبوأخر يتخذها الفنلنديون فريضة للسياحة والاستمتاع بالمشروبات بغير حدود .

وقد أمضينا يومين في مشاهدة التحف الفنية واللوح الزيتية والحلي الذهبية في متحف الأرميتاج الشهير . وهو استعراض لتاريخ روسيا ومخلفات القيصرية النادرة التي لا تقدر بثمن ، وفيه قاعات تصور حملة نابليون على روسيا وهزيمته واندحاره في الشتاء القارس - وهو مزار مجتبع للسائحين .

وطبعا لا وجه للمقارنة بين تلك القصور والمخلفات المحفوظة بها وبين ما تبقى من مخلفات قصور الملك فاروق والأسرة المالكة التي عزلت منذ أكثر من ثلاثين عاما فقط !

ولا يضاهيها في وفرتها وراثتها والعناية بها سوى قصور سلاطين آل عثمان في اسطنبول على مشارف البسفور ، حيث شجعت الثورة الكمالية في الحفاظ عليها : قاعة العرش والحرمك ومساكن الجوارى والآثار الاسلامية ، والملابس الملكية ، وأطقم المائدة واشربة ، والتحف والمجوهرات .

وعندما غادرنا لينينجراد بالتاكسي من الفندق أخذ يسوق بنا ويبتعد عن وسط المدينة وشعرت أنه يتجه بنا نحو المطار لأن المسافة بين الفندق ومحطة السكة الحديد لم تكن بكل هذا البعد ، وحاولت التفاهم معه . ولكنه طبعا لا يعرف سوى الروسية ، وأخيرا أوقفته وقلت له : إننا سنأخذ قطار السكة الحديد ، وأخذت أمثل حركة القطار وأطلق صفيرا وأصواتا كالقطار ، وأهز ذراعي كأجنحة الطائرة وأقول له الطائرة لا لا وأخيرا فهم وأخذنا إلى المحطة قبل فوات الأوان . ويظهر أن سائقي التاكسي هم شأنهم كذلك في كل مكان من العالم .

طبعا لا يمكن التعرض لنظام الحكم في الاتحاد السوفيتي كدولة كبرى مترامية الأطراف أو تفصيله لجرد قضاء زيارة سياحية أو أكثر فهذا امر يحتاج لاقامة أطول ، ودراسة اعنف . وهو ما لم يكن ميسورا بطبيعة الحال .

ولكن كلمة حق الشعب السوفيتي نفسه رجالا ونساء شعب عامل نشيط قوى الاحتمال شديد الاحترام للمواعيد ، يميل للبهجة والموسيقى والأكل

والشرب والغناء. وفيه شيء من الأسلوب الشرقي العاطفي ولكنه يفتقر
الاجانب، وطبعاً عدم معرفة اللغة الروسية - بحروفها المختلفة في النطق عن
بعض الحروف اللاتينية وإن تحدثت معها في الرسم يفتقر حاجزاً قوياً في وجه
إقامة تجسوس التعارف والتقارب.

الفصل الرابع

خاتمة المطاف

إلى بغداد

في يناير ١٩٧٦ بدأت الاستعدادات للسفر إلى بغداد لتولي مهام منصبى سفيراً لمصر هناك . وقد سالت في ادارة السفر بالوزارة - الخارجية - عن الطائرات المتاحة فقبل شركة مصر للطيران . وعدد كبير من طائرات الشركات الأخرى التى تتجه إلى بغداد بدون توقف بينما تتوقف الطائرة المصرية في دمشق .

فقلت لو أن السفير البريطانى سيتوجه للقاهرة لتسلم عمله هل سيستخدم خط طيران أجنيسى . أم شركة الطيران البريطانية . فقبل البريطانية طبعاً قالت . وأنا كذلك سأسافر وعائلتى على الطيران الوطنى .

توجهت في صباح يوم السفر نقابة الرئيس السادات في مقره بالقناطر الخيرية بناء على موعد محدد . وكان حديثاً طويلاً ذكرنا فيه زيارته لسوريا وحلب عام ١٩٥٧ ، وتلقيت منه التوجيهات اللازمة

وغادرت رأساً إلى المطار لحاقاً بالطائرة وكان الركاب بما فيهم عائلتى قد أخذوا مقاعدهم استعداداً للرحيل .

كانت الرحلة ممتعة . وكنا محل الرعاية والترحيب . وأعلن ريان الطائرة أننا سنهبط بعد قليل في مطار دمشق الدولى .

وفعلاً هبطت الطائرة بسلام . وقبل أن تتوقف شعرنا أنها خرجت في نهاية المدرج وأخذت تهتز اهتزازاً عنيفاً فوق أرض غير مصهدة وتطلعنا من النوافذ فوجدنا السماء داكنة والأمطار تهطل بغزارة

وما هى إلا ثوانى حتى أوقفت المحركات وفتحت الأبواب وجاء المضيفون وقالوا اطلعوا أحذيتكم وارتكوا أمتعتكم واقفروا على بساط النجدة الذى تدلى من باب الدرجة الأولى . وفعلنا قفز الأولاد وزوجتى وخرجنا جميعاً . وقبل

اركضوا سريعا بعيدا عن الطائرة واخذنا نجرى في ارض وعرة مشبعة
بالأمطار في اتجاه مبنى المطار بين ابواق سيارات الحريق والاسعاف المنطلقة
وطبعا في مثل هذه المواقف لا فرق بين سفير وخطير - والمسألة أصبحت
مسابقة في العدو بالجوارب في الوحل .

ولم ندر ما حدث بسوى أننا وجدنا أنفسنا في قاعة الانتظار وأماننا
الزميل المشرف على السفارة المصرية يدمشق يقول حمد لله على السلامة

وبيضا أنا المكر في الحقيقة التي كنت أحملها في يدي عند السفر وبها
أوراق الاعتماد إذا بي أجدتها ملقاة في القاعة ولا أدري كيف جاءت !

وسألت عن الركاب والطائرة فقليل كل شيء على مايرام . وكل ما في الأمر
أنه بالنظر للأ مطار الغزيرة منذ الصباح ، فقد استمرت الطائرة بعد المدرج
ولكن لم تحدث أية أضرار .

توجهنا مع الزميل إلى فندق سميراميس بعد جولة ليلية في المدينة وتناولنا
العشاء . وقلت فرصة بمشاهدة دمشق بعد وقت طويل ١٨ سنة .

ولم نكد نتهية النوم حتى جاءتنا اشارة من المطار أن طائرة ثانية وصلت
من القاهرة وأن ركاب بغداد عليهم التوجه إلى المطار للمغادرة .

وصلنا إلى بغداد قرب الفجر وقد انصرف غالبية المستقبليين فيما عدا
سيارة السفارة وبعض العاطلين بها . دخلنا دار السكن والجو يغلي السكون
وقد انعكست أشعة الشروق على صفحة نهر دجلة الخالد حيث تقع الدار .

وقد سئلت عما حدث فقلت مجرد حادث بسيط يعني أن يحدث لأي خط
طيران وقد أرسلت الشركة طائرة ثانية لتتقل ركاب بغداد وهو ما كان ليحدث
على غير خط الطيران الوطني .

والواقع قليل من الناس فقط هو الذي يقدر حجم ما يتعرض له
الدبلوماسيون من مفاجآت في السفر سواء بالطائرات أو بغيرها إذ تقوم
وقيظتهم على التنقل الدائم الأمر الذي يعتبر من مخاطر المهنة ولا يمكن درؤه

وأذكر أنني سافرت كثيرا بين عواصم بلاد أفريقية صغيرة في وسط
القارة أعوام ٦٦ إلى ١٩٦٨ : من نيروبي لكينيا ، من كيجالي (رواندا)
ليوجمبورا (بورندي) . الخ بطائرات عتيقة ذات حركات .

كانت الطائرة تجد صعوبة في الارتفاع للطيران فوق قمم الجبال ، وإنما
كانت تطير بينها . وكانت تعلق وتهبط في المطبات الهوائية كالريشة في مهب
الرياح ، وتصدر أصواتا كأبواب البيوت القديمة المهجورة عند فتحها .

وإذا كانت قواعد المرور بالنسبة للسيارات في كل دول العالم تنص على
سحب الترخيص لتسيير السيارات التي تقادم عهدها ، فأول أن يتم ذلك
بالنسبة للطائرات - ولست أدري ما إذا كانت المنظمة الدولية للطيران المدني
بعمونتريال - وهي إحدى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة - تصدر مثل هذه
التعليمات أو أن لها حق تعيين مفتشين ترسلهم لمختلف الدول للتحقق من
إصدار الطائرات وموديلاتها . وكما كنا نشاهد في أمريكا مقابر للسيارات تغطي
مساحات شاسعة من الأبنية ، ينبغي أن يكون هناك أيضا مقابر للطائرات
التي انتهى عمرها الافتراضي حرصا على أمن وسلامة الركاب .

توطين الفلاحين

كنت اتطلع للخدمة في العراق الشقيق باعتباره بلدا له حضارة حضارية في
أصاقي التاريخ في بابل و اشور ، وله تراث إسلامي عريق حيث قامت الدولة
العباسية عبر عدة قرون ، وظهر فيها خلفاء طبقت شهرتهم الأفاق مثل : هارون
الرشيد ، وفيه المزارات المقدسة في كربلاء ، والتخيف ، والكوفة ، كعبة الشيعة
من المسلمين .

وعندما وصلت لبغداد وجدت نهر دجلة يتوسطها يجلب الخير والخصب
والخضرة على جنبائه ، وهو في تدفقه واتساعه لا تكاد تفرقه عن نهر النيل ،

وتتميز بلاد بين النهرين أو الرافدين بركة زراعية شاسعة ووجود
مساحات من الأرض الزراعية حول نهر الفرات وشرق نهر دجلة غير مزرعة
رقم خصوبتها المتجددة إذ يجلب النهران الطمي من المنطقة الشمالية حيث

تهطل الأمطار وتذوب الثلوج التي تكتسب قمع الجبال الممتدة عبر الحدود التركية والآيرانية ، وتتدفق المياه العذبة حتى يلتقي النهران في « القرن » بضعة كيلومترات شمال البصرة ثم يصب ملتقى النهران في شط العرب في الخليج .

ولذا اتجه التفكير إلى استخدام مجموعة من الفلاحين المصريين للإقامة والتوطن في العراق ، وبذلك في سبيل ذلك خطوات عملية لتحقيقه .

وقد وقع الاختيار على قرية تسمى « الخالصة » تبعد حوالي ٦٠ كيلومترا عن بغداد بنيت خصيصا لاستيعاب مائة عائلة من الفلاحين المصريين تضم الأسرة أربعة أفراد في المتوسط .

وقد توجهت في أبريل ١٩٧٦ إلى تلك القرية مع الأخوة العراقيين من اتحاد الزراعيين للترحيب بوصول أفواج الفلاحين . وتتألف الدار المخصصة للفلاح من ثلاث غرف ومطبخ كبير فيه ثلاثة غرفين يوتا جانز ، والحمام فيه سخان وغسالة أوتوماتيك . والقرية مزودة بالمياه النقية والكهرباء وشوارعها معبدة ، وفي وسطها أقيمت سوق ومستوصف ومدرسة ابتدائية وصالة للطلقات والاجتماعات والمناسبات كالافراح ومسجد .

وبمجرد وصول العائلة المصرية يُسلم رب الأسرة بيتا ومقرة ومبلغا من المال ليعينه على بدء الحياة والانتاج ونصيبه من الأرض وهو من ٢٠ إلى ٢٥ دونما (الدونم = ١/٢ فدان) . ويقسم الفلاحين جمعية تعاونية لديها عدد من المكائن مثل الجزارات والحصادات والموتورات وتمدها الجمعية الفلاحية في بغداد بالسلف الزراعية لشراء البذور ورعاية المحصول ، ويركز الفلاحين في زراعتهم على الخضروات .

ولكن نتيجة هذه التجربة برهنت عدة عوامل لتهيئة المناخ المناسب لاتخاذها :

١ - الموقع من الناحية الجغرافية : فالقرية قريبة من بغداد ، أرضها مبسطة تشبه الأرض المصرية شملت فيها الترع والمصارف وليست متلفة تعتمد على الأمطار مثلا

٢ - من ناحية المناخ : فهو قريب الشبه جدا بجو مصر وخاصة الصعيد ، والقرية بعيدة عن المناطق الجبلية في الشمال حيث تسقط الثلوج ، وهو ما لم يعتد عليه الفلاح المصري .

٣ - من ناحية الاسكان : انشئت مساكن صحية بالطوب الأحمر فيها مياه جارية وكهرباء ، وزودت القرية بالمرافق والخدمات وسوق ومدرسة . الخ

٤ - من الناحية النفسية : وحدة اللغة والعادات والتقاليد والدين والتراث ، وروى كيداية قصر سكنى القرية على المصريين ، وطبيعي أن اللغة العربية - رغم اختلاف اللهجة - تجعل الاندماج والتسويق سهلا عيسورا فضلا عن أن التلفزيون يدخل معظم منازل القرية ، ويشاهد سكانها الأفلام والمسلسلات المصرية والعراقية .

٥ - الأعداد الدقيق : فقد توجهت وفود عراقية من اتحاد المزارعين إلى مصر لاختيار أصلح العناصر ، وبوضعت قواعد وضوابط : فروعى أن يكون الشخص متعلما تعليما عاما وليس أميا ، وأن يكون سليم البدن لا يشكو من الأمراض المتوطنة (كاليلهارسيا) ولا يزيد عمره على ٤٠ عاما ، متزوج وله أسرة يحد أقصى طفلين ، وتم الاختيار من بين محافظات الشرقية والغربية والخوفية من الوجه البحري ، وبنى سويف والمنيا وسوهاج من الوجه القبلي .

وقد شددت هذه التجربة انتباه الكثيرين من المشتغلين بالزراعة والمتخصصين في علم الاجتماع والدراسات السكانية ، وكانت محل زيارة ودراسة من جانب كثير من الوفود الزراعية من مختلف الدول المشاركة بالمؤتمرات الزراعية التي انعقدت في بغداد .

وكان التساؤل يثور دائما هل هناك جوانب سلبية للتجربة ؟

وطبيعي هي كأي تجربة فيها جوانب سلبية وإنما محدودة للغاية ، ومثال ذلك عندما زرتا القرية اكتشفنا أن بعض العناصر رغم اشتراط معرفة القراءة والكتابة إلا أنها اندست بين الواقعيين - وهي غير مؤهلة - وفي بعض الحالات رب الأسرة يعمل حلاق صحة وليس له خبرة بالفلاحة ويود تأجير

أرضه ، ويفتح صالون حلالة ، وشخص آخر يرغب في أن يتزعم الفلاحين ويعمل عدة وهم يتزعون له أرضه !

كذلك مشكلة ملكية الأرض - فالجمعية الزراعية العراقية كانت تفكر في جعلها مزارع تعاونية جماعية على طريقة « الخولكوز » ولكن الفلاح المصري يؤمن بالملكية الفردية ، وإذا أصر على أن يمتلك أرضه محددة حتى يبذل فيها قصارى جهده ويورثها لأثرته .

والآن بعد مرور عشر سنوات - أي في عام ١٩٨٦ - ماذا عن حصيلة تلك التجربة للفلاحين المصريين ؟

كان التوقع أنه لو أن بعض العناصر لم تستطع التأقلم بنسبة تصل إلى ١٠٪ فإنها تعتبر تجربة ناجحة ، وتدل معلوماتنا على أن ٨٦ عائلة من أصل المائة عائلة قد استقرت نهائيا بينما عادة لمصر ١٤ عائلة ، أي بنسبة ١٤٪ لم توفق وهذا يعتبر نجاحا كبيرا بكل المقاييس .

هذه التجربة الرائدة هي نموذج للتعاون البناء بين مصر والعراق . وقد بذلت الجهات الفلاحية العراقية ووزارة الزراعة العراقية جهودا كبيرة في تخطي العقبات وتذليل الصعوبات التي واجهت التجربة .

وهذا هو السبيل العملي للتكامل الاقتصادي العربي ، وهو ما لم يحدث أثناء وحدة مصر مع سوريا أعوام ١٩٥٨ - ١٩٦١ ، ولا مع السودان رغم وحدة وادي النيل على امتداد تاريخها .

وفي لقاء مع الرئيس العراقي الراحل أحمد حسن البكر في يولية ١٩٧٧ قال لي : أنهم يرغبون في التوسع في استقدام الفلاحين المصريين من منطلق قومي ، فإذا ضاقت بهم الرقعة في مصر ، ففي العراق مساحات شاسعة صالحة للزراعة ، وليس المطلوب فقط مائة عائلة بل مئات والآف ، مليون فلاح وكل فلاح يأخذ ثمرة جهده ويحني حاصلات أرضه ، فالقومية ليست مجرد أقوال وشعارات ، وإنما ينبغي أن تترجم إلى أفعال وممارسات - وهذا هو أيضا فكر وفناعة واقتناع الرئيس العراقي صدام حسين

المزارات المقدسة

لاحظت أثناء إقامتي ببغداد أن هناك تخطيطا مدروسا واعيا للتهوض ببغداد العاصمة ، وبكافة الحالات الزراعية والصناعية والعمارية والنقل والمواصلات في أنحاء العراق

فبغداد الحديثة تقع على الجانب الشرقي لنهر دجلة حيث يرتفع عدد من الفنادق العالمية ، وتقام قاعة كبرى للمؤتمرات ، وحديقة غابة هي حديقة الزوار الأكبر في أنشائها من حديقة « هايد باوك » في لندن والمطار الدولي الجديد ، وحى أثيق اسمه « المنصور » تقطنه معظم السفارات و به ناد رياضي اجتماعي والعديد من مباني وبنادى الثقافات المهنية : المحامين والمهندسين والعلميين ... الخ .

وفي خارج بغداد تبذل الجهود لإقامة المزارع تحت الصوب المغطاة لزيادة الانتاج في ظروف مناخية بالغة القسوة حرارية وبرودة ، وتُنشأ محطة قرب « كركوك » في مناطق إنتاج البترول لنقله في خط أنابيب عبر الحدود في الأراضي التركية بذات الكيلومترات إلى ميناء « جيهان » على البحر الأبيض المتوسط قرب مدينة «مرسين» مروراً بمناطق جبلية وعرة ، والعمل على ازدواج وتشجير الطريق السريع الذي يربط بغداد بالموصل في الشمال والبصرة في الجنوب بامتداد يتجاوز ألف كيلومتر .

وبوابك تلك جدية في العمل والاداء ، فالوزارة والقيادات يحضرون إلى مكاتبتهم في الثامنة صباحا ، وكنت أحيانا أقابل وكيل وزارة الخارجية في هذا الموعد المبكر .

وبغداد كمدينة تحكي تاريخها ، ففيها مرقد أحد كبار الأئمة المسلمين وهو الإمام أبو حنيفة ، وفيها أكثر من جامعة ، وقد أضيفت إليها في عهد حكم البعث كمسات جمالية من الفنون التشكيلية الحديثة في المساحات والمباني الكبيرة مثل مجموعة تماثيل على بابا ، والأربعين جراسا !

ولكن لعل أكثر ما يشد انتباه الزائر لبغداد ، والعراق بصفة عامة هي

المساجد ذات القباب المطلية بالذهب ، فهذه تعكس وهج الشمس لأحيال بعيدة والشمس تسطع على مدار السنة - فحت هذه القباب أضوحة أشعة الشيعة - وفي بغداد أحد هذه المساجد هو مسجد الكاظمية ، وفي الشمال في سامراء مسجد معاش لأحد هؤلاء الأئمة ، وطبعاً أكثرها بهاء وبراء هي المزارات المقدسة في النجف وكربلاء والكوفة .

زرتا النجف وكربلاء مع ضيوف لنا من القاهرة أكثر من مرة .

والنجف مدينة مقدسة عند المسلمين لوجود مرقد الإمام علي بن أبي طالب ، وهي مركز هام لتعليم العلوم الدينية ، وعلى بعد ١٠ كيلومترات منها تقع مدينة الكوفة وبها المسجد الكبير الشهير الذي قتل فيه الإمام علي .

أما كربلاء فهي على مسافة نحو مائة كيلو متر جنوب غرب بغداد ، وهي مدينة إسلامية مقدسة بها يرقد الحسين عليه السلام ، وإلى جواره مرقد أخيه العباس . واليها يحج المسلمون الشيعة من العراق والافطار الإسلامية الأخرى وعلى الأخص إيران وأفغانستان وباكستان .

وقبة المسجد - كما اسلفنا - مطلية بالذهب ، أما داخل المسجد فقد رصعت أبوابه وحوائطه وسقفه بقطع صغيرة من الجرايا وتدللت الثريات الكريستال وقرشت الأرض بالسجاد الإيراني الفاخر ، ولديهم متاديق موضوع بها قطع من الحجارة من أرض معركة الاستشهاد يضعها المصل تحت جيبتها ، وهو ما لا يقطعه المسلمون من أهل السنة .

ويدل البذخ على تقدم فن المعمار والتفوش والزخرفة الإسلامية لدى الصنف المهرة من إيران .

وأذكر أنه أثناء إحدى زيارتنا لكربلاء تعرفنا على مجموعة من السياح الروس ومعهم مرافق من السفارة السوفيتية ببيطار جالسين بأحدى الأتوبيسات يشاهدون المسجد من الخارج وقد رفض الجراس السماح لهم بالدخول - وجاءتنا واحدة منهم وقالت أنها من إحدى الولايات السوفيتية المسلمة في أوزبكستان وتود الدخول معنا ، فبعلا اعطيناها عباءة سوداء - وهي لابد للسيدات جميعها من لبسها توقيراً للمسجد - تخفت فيها وغطت

رأسها ووجها ودلفت معنا تشاهد تلك الروائع بالداخل وعندما خرجت أخذت تروى لبقيّة الوفد السياحي في زهول ما شأنت وطبعاً لا تعرف كلمة واحدة عربية .

هذه المزارات المقدسة هي كعبة الشيعة من المسلمين ، وتعكس وزن الشيعة من أهل العراق - فأولاً يبلغ عدد سكان العراق ١٢ مليون نسمة ، وقد أجرى الإحصاء في أحد أيام العطلة في شهر أكتوبر ١٩٧٧ حيث قرض حظر التجول ، وألزم المواطنون بالبقاء نهاراً في منازلهم وأغلق مطار بغداد الدولي في وجه الملاحة الجوية ، وكلف الآلاف من الموظفين بالترور على المساكن والأماكن العامة لحصر المواطنين على الطبيعة ، وجاءنا بدار سكن السفارة عدد منهم ومعهم استمارات خاصة بالإحصاء لملئها ، وقد علمت من بعض السفراء الأجانب أنهم لم يعملوا الاستمارات استناداً إلى حصانتهم الدبلوماسية .

واظن أن هذه الطريقة في الإحصاء بالجهد البشري أدق من طريقة الحسابات التقديرية بالكمبيوتر على أساس متوسط عدد المواليد والوفيات في لحظة معينة على نحو ما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية ، وتتبعها في نفس الأسلوب أغلب دول العالم ، ولكنها طبعاً طريقة مكلفة للغاية . المهم أن عدد السكان الشيعة في العراق يشكل حوالي من ٥٠ إلى ٥٥٪ من مجموع السكان أغليتهم الساخنة عرب ، والسكان السنة حوالي ٤٣٪ منهم ٢٥٪ من السكان عرب وسنة ، ١٨٪ أكراد وسنة ، وباقي السكان ما بين مسيحيين ويهود . والمعروف أن الأكراد يقطنون في المنطقة الجبلية الشمالية الشرقية في السليمانية واربيل المتاخمة للحدود الإيرانية والتركية .

هذه الإحصاءات التي تذكرها المصادر الغربية تحتاج لوقفة . الشيعة في اللغة العربية معناها الاتباع والانصار ، وقد أطلق اللفظ على الذين ينادون بالامامة لعلي وأهل بيته على اختلاف في وراثة الامامة بين ولده ، ومن فرقهم اثنا عشرية والزيدية والاسماعيلية . وقد تركوا بصماتهم على الحياة السياسية والفكرية في الإسلام .

وأهم ما يميز مذهب الشيعة هو نظرية ، الامامة ، التي تنطوي على أن

خليفة الرسول هو أكثر من مجرد زعيم سياسي ، وإنما ينبغي أن تتعقد له « الولاية » أى التفقه فى الشريعة والقدرة على تبيان أحكام القرآن ، « والولاية » تعنى العصمة من الخطأ والخطيئة وأن الاختيار قد تم من الله عن طريق الرسول .

وبعد هذا اجدى نقاب الخلاف الرئيسية بين الشيعة والسنة - ويتركز السكان الشيعة حول المزارات المقدسة : وفى جنوب العراق حيث يمارسون طقوسهم فى التضرع فى يوم العاشر من محرم (عاشوراء) يوم ذكرى وفاة الحسين .

والحكم فى العراق يتولاها السنة ، ولكن حزب البعث منذ أن تولى السلطة فى عام ١٩٦٨ لم يميز الصفة الدينية المذهبية للسنة . كما أن نزوح الفلاحين الشيعة إلى بغداد والمدن الكبرى وازدياد فرص التعليم والخدمات الاجتماعية والتوسعات الصناعية من شأنها أن تقلل من أهمية التفرقة بين السنة والشيعة .

إلى طهران

بعد أن أمضيت عاما فى بغداد كان من الضروري زيارة إيران . وكنت خلال خدمتى بالسلك الدبلوماسى اضع لنفسى قاعدة : وهى أن أمضى عامى الأول فى الدولة المعتمد لديها أزور مناطقها المختلفة ، وفى العام الثانى أزور الدول المجاورة . فعندما كنت فى سوريا فى الخمسينيات سافرت بالسيارة من حلب إلى أنقرة مرورا بإسطنبول وأضنة . ثم إلى استامبول مرورا بمدينة بورصة الشهيرة ببحاها وعطاعمها . وعندما كنت فى كينيا أزرت شيروبى والخرطوم والكونجو (زائير) وعندما كنت فى فلسطين أزرت اسنكهولم وكوبنهاجن وليبنجراڤ وموسكو . وهكذا .

وسوف يجد الدبلوماسى فى أى موقع يعمل فيه أن الكثير من القضايا السياسية الداخلية فى البلد المعتمد فيه لها جذور تاريخية تفسرها علاقات

الجوار سواء كانت غزوا أو احتلالا أو اندماجا أو نزاعا أو حسن جوار . ولذا فإننى أوصى الدبلوماسى أيا كانت درجة الوظيفة أن يضع لنفسه برنامجا لزيارة الدول المجاورة للدولة الموفد إليها من قبيل الدراسة والسياحة والاحتاطة والاطلاع بالواقع الجغرافى فى المنطقة . وأن يتجاوز أية صعوبات أو عقبات مادية قد تعيقه عن القيام بمثل هذه الرحلات . وأول هذه الصعوبات فى تقديرى هى مجرد التردد والكسل . ولكنه متى أقدم على القيام بها فسوف يجد فيها فائدة كبرى وراحة وخبرة وإثراء لمعلوماته بل وارتفاعا فى مستوى أدائه لوظيفته .

وبالنسبة لزيارة إيران فكانت الفكرة تستهوينى منذ كنت أعمل بسوريا . فللقوس تاريخهم العريق وحضارتهم الضاربة فى عمق الزمان . وهم منذ الغزو العربى واعتناقهم للإسلام أخذوا بمذهب الشيعة ، أو التشيع لعلى رابع الخلفاء الراشدين مما شكل شروحا عميقا واجتهادا فى الفكر الإسلامى وأصبحت المزارات المقدسة فى النجف وكربلاء كعبتهم .

توجهنا - زوجتى وأنا - بالسيارة يقودها سائق السفارة عبر الحدود العراقية الإيرانية فى شمال شرق بغداد فى منطقة « خابقين » فى فبراير ١٩٧٧ . المنطقة جبلية وعرة يقطنها على جانبي الحدود السكان الأكراد بإزيائهم المميزة الرجال بسرابيلهم ، والسيدات بأثوابهن ذات الألوان الزاهية المزركشة . والطريق واسع وممهّد وأحيانا ذو اتجاهين . وأول ما صادفنا على الجانب الأيرانى محطة إذاعة معروفة فى المنطقة هى محطة « قصر شيرين » تذيع أرسالها باللغة العربية .

تجولنا فى مدينة « كرمانشاه » وأمضينا ليلا ثم وصلنا السقر فى الصباح إلى طهران مرورا « بقزوین » فوصلنا إليها عند الظهر .

وطهران مدينة جميلة تجمع بين القديم والحديث : السوق المغطاة والمعابر الشاهقة .

وطبيعي أن أول ما يتجه إليه التفكير هو مشاهدة السجادة التي تشتهر به إيران . وجدنا أن هناك شارعاً اسمه « خيaban فردوسي » يضم آخر محلات السجادة ، وأن غالبية أصحاب المحال من اليهود الإيرانيين . وعندما عرفوا أنني سفير مصر بالعراق أصروا على أن يبيعوا لي قطعتي فخرتيني من السجادة الحرير (كاشان ونابين) وأن أرسل لهم الثمن بعد عودتي إلى بغداد ! وطبعاً لم ترفض زوجتي العرض .

زوّجا معالم المدينة ومناخها - سراي الشام السابق ومجموعة مجوهرات التاج - ودعينا لأكثر من جولة زفاف لعائلات إيرانية موسرة في أكبر فنادق طهران ، وكان مستوى البذخ واضحاً ، وكميات الحل التي ترتديها المدعوات ، والأكل والشراب الوفير كلياً الف ليلة وليلة .

ودعينا برفقة سفيرنا في طهران إلى إحدى حفلات السهرة الخاصة في فيلا طبيب جراح إيراني مشهور استاذ كبير في الجامعة .

وقد لاحظت أن مستوى جمال السيدات الإيرانيات الحاضرات مرتفع للغاية . وأن أثوقهن صغيرة ودقيقة وبشرة وجوههن ناصعة البياض ولم استطع مقاومة إبداء هذه الملاحظة ، فانتزع أن المضيف هو جراح تجميل وأن جميع المدعوات من الأرستقراطية الإيرانية قد أجزى لهن المضيف عمليات تجميل ناجحة في وجوههن . ولعل أقل العمليات تونيفاً هي التي أجراها لزوجه !

كان الشتاء قارساً ، والثلوج تكتسي الأرض وتشاهد من بعد على قمم الجبال شمال طهران .

كانت هذه الزيارة في بداية عام ١٩٧٧ ، وكل شيء يبدو هادئاً على السطح - ولكن الدبلوماسي المحكث المتمدن بالبلد لابد أن يكون ذا بصيرة نافذة لا يبعد من مجرد الحفلات الساهرة ، والدعوات الفاخرة ، وأن يقيم الأوضاع

من حيث أسلوب الحكم ومدى اقترابه من الديمقراطية وكفالة الحريات وحقوق الإنسان ، والظروف الاجتماعية ، السائدة من حيث مستوى المعيشة والدخول ، والثقافة أو التقارب بين الطبقات ، ثم مزاجية الحكم ومدى انتشار الفساد أو الرشوة أو المخدرات . فالحكم عن طريق القهر والرقابة وتكثيم الأفراد والتدكاتورية والحرس الخاص وأجهزة الاستخبارات مخالف لطابع الأشياء ، وقد يستمر أمداً ، أو عشراً ولكن لابد من سقوطه أو إسقاطه .

وفي هذه الفترة بالذات كان « آية الله روح الله الخميني » يعيش في النجف الأشرف في العراق منذ عام ١٩٦٤ . وقد اضطر لمغادرة البلاد بعد ذلك في أكتوبر ١٩٧٨ إلى ضواحي باريس - ولكنه لم يقم طويلاً هذه المرة بل عاد إلى إيران مختصراً في أول فبراير ١٩٧٩ بعد خروج الشاه لكي يبدأ تجربته في تطبيق الشريعة الإسلامية وفق مبادئ الشيعة ، ويحاول تصديرها إلى باقي البلاد الإسلامية .

والسؤال الذي يطرح نفسه هل كان في مقدور الدبلوماسي المخضرم المعتمد في طهران عند زيارتي لها في عام ١٩٧٧ أن يتنبأ بمصير الشاه ويعودة الخميني من منفاه . هل كانت أوضاع الشعب قد وصلت إلى ذلك الحد من السوء والسخط والتردي بحيث قاربت نقطة الانفجار هل كان نظام الشاه يمارس رخاء ظاهرياً هو في واقع الأمر خلاوة الروح فيقول الاحتضار ؟ كل هذه الأسئلة تداعبت في ذهني عندما توجه الخميني لحكم إيران وكنت وقتها في القاهرة . ومن حسن الحظ أنه لم يكن مطلوباً مني الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها لأن زيارتي لإيران في مطلع ١٩٧٧ كانت مجرد رحلة سائح عابر ليس من مهمته تحليل الأوضاع ، أو طرح التوقعات وإصدار التنبؤات .

حاشية

خلال خدمتي بالعراق توثقت العلاقات المصرية العراقية وحقت تعاوناً واسعاً، بناءً في العديد من المجالات، فكان لدينا عدد كبير من الأساتذة في مختلف التخصصات في جميع الجامعات العراقية، ثلاث جامعات في بغداد وجامعة في كل الموصل والبصرة والسليمانية (أربيل) كما كان لدينا عدد من الطلبة المصريين يدرسون بهذه الجامعات يشرف عليهم مكتب ثقاف.

ويوجد عشرات الآلاف من المصريين يعملون في المؤسسات والبنوك والشركات والمقاولات والفنادق والحرف والصناعات الصغيرة والمزارع والبساتين. كما وجد تعاون عسكري متطور خاصة في مجال الطيران ولدينا مكتب مستقل للعلاقات العسكرية.

ومن الطريف أنه أثناء إحدى زياراتي نائب الرئيس المصري - حسني مبارك - المتكررة، لبغداد للتشاور وتبادل الرأي والتصديق مع القيادات العراقية وذلك في نوفمبر ١٩٧٦ كنا بانتظاره بالمطار مع كبار رجال الدولة والمسؤولين العراقيين. وعندما نزل من الطائرة الخاصة التي كانت تقله عزفت الموسيقى السلام الجمهوري المصري تحية للضيف ثم السلام الجمهوري العراقي وإذا بهما نفس النوتة الموسيقية، لدرجة أن البعض لاحظ أنه كان يكفي أن يعزف السلام مرة واحدة طالما أن السلاطين متطابقين عنواناً على وحدة الهدف بين البلدين.

ولم يكن هذا الأمر مفاجأة لي لأنه عندما كنت سفيراً في فلسطين قبل ذلك بسنوات عام ١٩٧٢ حضر من استكهولم سفير العراق لتقديم أوراق اعتمادة سفيراً غير مقيم في فنلندا، ولم يكن ذو خلفية دبلوماسية. وأظنه كان من رجال التعليم، المهم أنه لم يحضر معه التشيد القومي لدولته وليس لديه وقت لكي يبحث لبغداد لوفاته. به، وقد اتصل بي مدير المراسم بالخارجية الفنلندية في محاولة للخروج من المأزق، فقلت له أنه حسب علمي التشيد الوطني العراقي هو نفس التشيد الوطني المصري وأرسلت له النوتة الموسيقية. وكلمات التشيد. وعندما أطلع عليها سفير العراق أكد للفنلنديين

أنها فعلاً التشيد الوطني العراقي، وجرت مراسم تقديم أوراق الاعتماد، وصعدت موسيقى الحرس الجمهوري بالتشيد الوطني العراقي.



على أنه على اثر ما عرف من أن الرئيس السادات سيقوم بزيارة لإسرائيل في مهمة سلام ويلقى خطاباً في الكنيسة الاسرائيلي في ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧ يطالب فيه بسلام عادل ودائم للمشكلة الفلسطينية. تدهورت العلاقات المصرية العراقية بسرعة. وبدأت أجهزة حزب البعث تحييء الشعور العام ضد هذه الخطوة ونظمت المظاهرات والمسيرات لشجبها واستنكارها وتقرر عقد اجتماع للجامعة العربية في بغداد لتدرك هذا الأمر.

تلقيت في هذه الأثناء برقية رمزية باستدعائي للتشاور وحزمت أمري على السفر إلى القاهرة في اليوم التالي. مثل هذا التوتر الطارئ في العلاقات هو من طبيعة الأشياء في العمل الدبلوماسي وقد عودتني خبرتي الطويلة على أن أكون جاهزاً للتحرك بأشعار قصير الأمد. ولذا عندما اتصل بي الملحق العسكري، وكان قد تلقى استدعاء مماثلاً قلت له أنتى سوف أغادر بغداد في أقل من ٢٤ ساعة.

وقد توجهت على الفور لمقابلة المسؤولين العراقيين، وأبلغتهم باستدعائي وسفري للقاهرة وتعنيت خيراً مستقبل العلاقات بين البلدين الشقيقين، وأوضححت لهم أمرين الأول ضرورة حماية مقر السفارة المصرية ودار السكن من أي مسيرات أو زحف جماهيري من منطلق الأخوة العربية والانتماء بالاعراف والمواثيق الدولية ونفاذاً من المعاملة بالمثل للبعثة العراقية بالقاهرة. والامر الثاني هو أنه وردتني شكاوى من كثير من المصريين العاملين أنهم يتلقون لوماً وأحياناً إهانة من زملائهم العراقيين، وأن بعض الطلبة المصريين بالمدارس لا يستطيعون الذهاب لدارسهم حيث يهزأ بهم زملائهم الطلبة بسبب خطوة الرئيس السادات. وهؤلاء المصريون في كل موقع يقدمون ما يستطيعون من عطاء ويؤدون واجبهم في إمانة وإخلاص.

وللحق كانت استجابة الجانب العراقي فورية وحاسمة ومشرفة فعز

الشرق الأول توجهت قوات من المفاوير (الصابغة) لحراسة مقر السفارة . واجتمعت السيارات وتكلم الخطباء وأبدوا شعورهم ووجه نظرهم وانفضوا في سلام .

كما صدر تعميم سرى من القيادة الحزبية على أعلى المستويات إلى جميع القواعد والكوادر بضرورة حسن وقادة المصريين لأن هؤلاء أخوة للعراقيين يتعاونون معهم في بناء النهضة الشاملة التي ينعم بها الشعب العراقي ، وأنهم غير مستثولين عن تصرفات رئيسهم . وقد كان التعميم من الزوعة والحسم لدرجة أن الكثيرين من المصريين اتصلوا بهم واندحشوا من المعاملة الكريمة والترحيب الذي يتجاوز كل الحدود الذي يلقونه من اخوتهم العراقيين في مواقع العمل !

لذا عندما تشبثت العمليات العسكرية بين العراق وإيران في عام ١٩٨٦ وكنت بالقاهرة استفت لوقوعها لأنها سوف تعنى بالضرورة وقف مسيرة التعبير والرخاء الذي شهدته في العراق . وسوف تظلف كثيرا من الضحايا والشهداء والمعتقلين من الجانبين وربما تدعير بعض المنشآت العامة والمرافق الحيوية ودور الخدمات .

والآن وقد مضى نحو خمس سنوات على ذلك النزاع المسلح تزدى الوضع العسكري في المنطقة في ضوء احتلال إيران لأجزاء من الأراضي العراقية في جزيرة الفاو في الجنوب والمنطقة الكردية في اتجاه مدينة السليمانية في الشمال الشرقي وازدياد هجمات الطيران العراقي والبحرية العراقية على مفاصل البترول الأيراني في جزيرة خوز وتناقلات البترول في الخليج .

وفي نفس الوقت اضطهدت كل محاولات إيجاد حل سلمى لتلك الحرب بعقبات كاداء ، وعجزت قرارات الأمم المتحدة ومساعى منظمة المؤتمر الإسلامي ودول عدم الانحياز وجهود بعض الدول عن إحراز أى تقدم نحو اختراق الطريق المسدود إلى التسوية السلمية .

وهي حرب بين دولتين إسلاميتين يتعدى تأثيرها بالضرورة إلى خلق جو من التوتر ، وزعزعة الأمن والاستقرار في دول الخليج جميعها ، وإرهاق اقتصاديات دول المنطقة وموازنها .

ومن المؤسف أنه مما يساعد على تعميق الصراع المسلح بين البلدين واستمراريته انقسام الدول العربية ذاتها - لاعتبارات مختلفة - بين مساعدة إيران من جانب سوريا وليبيا ومن راعها ، ومساعدة العراق من جانب مصر والأردن والدول الخليجية .

ولست أدري ما سوف يكون عليه مستقبل تلك الحرب وقت صدور هذا الكتاب . ولكن لا أظن أن القارئ يتوقع مضي حلا لذلك الصراع المسلح . فهو أمر في تقديرى منوط بالدرجة الأولى بالقادة السياسيين ورجال الحكم في البلدين ثم في الدول المجاورة وباقي زعماء العالم وهو أكبر من أن يحله الدبلوماسيون .

بقى أن أشير إلى أنه عندما غادرت العراق على عجل في أواخر نوفمبر ١٩٧٧ تبع ذلك قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . وكان عدد المصريين يقدر في ذلك الوقت بنحو خمسين ألف مواطن .

والآن بعد نحو تسع سنوات لم تعد العلاقات الدبلوماسية الرسمية بين مصر والعراق . وإن كان يرأس مكتب رعاية المصالح في كل من الدولتين دبلوماسى بدرجة سفير . واتسع مجال التعاون وخاصة في النواحي العسكرية بما يفوق بمراحل التعاون في أحوال العلاقات الدبلوماسية العادية . وتضاعف عدد المصريين العاملين بالعراق أكثر من عشر مرات بحيث يقدر البعض عددهم - في غيبة احصاء دقيق - بأكثر من مليون نسمة !

العودة للوطن

عدت إلى القاهرة وقد عهد إلى الاشراف على معهد الدراسات الدبلوماسية بوزارة الخارجية الذى يتولى تدريب الدبلوماسيين العاملين بالوزارة بعد أن أصبحت الدبلوماسية مهنة تحتاج لهارات متخصصة لتابعة المتغيرات في العلاقات الدولية .

وقد شعرت بأن الوقت قد حان لكى أستقر في وطنى خاصة وأن أولادى التحقوا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

والذى يعمل بالسلك الدبلوماسى ممثلا لدولته بالخارج يتفتح ولا شك على ثقافات وحضارات مختلفة ويمارس عمله تحت مظلة من المزايا والحصانات الدبلوماسية والاعفاءات الجمركية ، ويختلط بشرائع اجتماعية متميزة . ولكنه فى كل ذلك يعيش غريبا مشدودا لبلده ، ولا يشعر بالراحة والاطمئنان مثلما يشعر بهما عند عودته لوطنه واهله ايا كانت ظروف بلده وأوضاعه . إنه الشعور الكامن بالانتماء والاحتواء والاسترخاء .

كما احسست بعد مسيرتى الدبلوماسية والخبرة التى اكتسبتها انه من الواجب ان أنقل إلى الاجيال القادمة من الشباب الدبلوماسى المصرى بعضا من هذه الخبرات ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

وكانت أولى هذه المهام المشاركة فى اختيار افضل العناصر المتقدمة للالتحاق بالسلك الدبلوماسى ، وضرورة الحفاظ على مستوى مشرف للعاملين بتلك المؤسسة التى هى واجهة الدولة فى الخارج .

وقد هيا لى موقعى السفر للاطلاع على نظم معاهد التدريب الدبلوماسى فى كل من فرنسا والمانيا الغربية والنمسا .

وفى صيف ١٩٨٠ انعقد مؤتمر مديرى المعاهد والاكاديميات الدبلوماسية فى القاهرة فى فندق مينا هاوس عند سفح اهرامات الجيزة بدعوة من وزارة الخارجية المصرية - وهى جمعية دولية مقرها فيينا تجتمع سنويا لتدارس اوضاع العاملين بالسلك الدبلوماسى فى مختلف دول العالم .

وقد اثير فى الاجتماع موضوعات شيقة منها اختيار نوعية الراغبين فى العمل فى السلك الدبلوماسى . والقاعدة المتبعة فى غالبية الدول هى وضع اختبار سابق تحريرى وشغوى للتعرف على قدرات المتقدمين لوظائف بداية السلك .

وكان التساؤل هل يحق للحاصلين على بكالوريوس الطب أو العلوم أو الزراعة أو العلوم العسكرية أو الشرطة التقدم لامتحان السلك . وقد لوحظ فى مصر مثلا أن بعض الاطباء والزراعيين قد تفوقوا فى الامتحان التحريرى ،

ويشمل عادة المواد المتصلة بمعهد الدبلوماسية مثل العلاقات الدولية والاقتصاد والعلوم السياسية والدبلوماسية واللغات الأجنبية .

ويمارض بعض كبار الدبلوماسيين السماح لخريجى الكليات العملية الالتحاق بالسلك بحجة أن لا يسمح لخريجى العلوم السياسية أو الحقوق مثلا بالالتحاق بمعهد الطب أو الهندسة .

ولكن مؤتمر مديرى المعاهد والاكاديميات الدبلوماسية رأى بالاجماع أنه لا ينبغى التفرقة بين خريجى الكليات النظرية والعملية ، وأن العبرة هى بالتفوق فى امتحان المسابقة الذى تعدده وزارات الخارجية . وأضاف مدير معهد الخدمة الخارجية الأمريكى بأن ذلك حق دستورى لاي مواطن لا يمكن المساس به أو حرمانه منه .

ولست أدري ما هو احساس القارىء ، وهل هو يؤيد قرار مديرى المعاهد الدبلوماسية فى العالم ، أم أن له رأيا مخالفا - علما بأن بعض السفراء القابضين فى السلك الدبلوماسى المصرى كانوا اطباء .

كذلك من الموضوعات الشيقة الشائكة هو التحاق المرأة بالسلك الدبلوماسى إذ تبلغ نسبتها الآن فى الدول المتقدمة ما بين ١٠ ٪ ، ١٥ ٪ من مجموع العاملين بالسلك بالدولة المعنية ولم تحقق المرأة فى الدول الغربية نجاحا يذكر رغم ما اتيح لبعضهن من فرص فى رئاسة البعثات الدبلوماسية أو لدى الأمم المتحدة مثلما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية من تعيين كبير بوث لوس أو شيرلى تمبل أو جين كيرك باتريك .

وطبيعى أن عضوية المرأة للسلك الدبلوماسى فى أى دولة تفرض قيودا معينة على تحركها وعلى نقلها لاعتبارات اجتماعية وأمنية مختلفة ، ولذا فانها لم يسمح لها بالالتحاق بالسلك الدبلوماسى فى بعض الدول العربية الاسلامية ، والافريقية .

وفى مصر لا يفرق قانون السلك فى الالتحاق بوظائفه بسبب الجنس

ويوجد فيه نحو ٨٠ إمارة موزعات على مختلف الدرجات بينهم واحدة صغيرة أي بنسبة ٧,٨٪ من مجموع أعضاء السلك الدبلوماسي المصري .

ولكن ليس من صالح العمل ولا صالح المرأة ذاتها ، مراعاة للظروف العائلية والحياة الأسرية أن تزداد نسبة العاملات بالسلك كثيرا عن ذلك رغم أنه في امتحان المتقدمين للالتحاق بالسلك كثير من الفتيات يتفوقن على الشبان ، ولكنه تفوق مرحلي وليس في المدى البعيد .

وعلى الجانب الشخصي كان من المهم بالنسبة لي أن أفرغ من بناء منزل الصيفي مطلقا على البحر الأبيض المتوسط ٢٤ كيلومترا غرب مدينة الاسكندرية في منطقة جديدة اسمها « أبو تلات » بعد مصيف العجسي المعروف .

وأظن هذا هو ما يسعى اليه كل دبلوماسي يتقدم به العمر ويقترب من سن المعاش بحيث يؤمن لنفسه مسكنا ريفيا أو شقة أو فيلا في أحد المصايف الهادئة المشمسة في جنوب فرنسا أو اسبانيا أو البرتغال ، وخاصة من كبار دبلوماسي دول الشمال .

وما أن قاربت سن التقاعد حتى جاعني عروضي للعمل كمستشار في العلاقات الدولية من بعض المؤسسات الخاصة والعامة . وسن التقاعد للدبلوماسيين في مصر - شأنهم شأن موظفي الحكومة عموما - هو ستون عاما . وهي السن المقررة في غالبية قوانين السلك الدبلوماسي في الدول المختلفة ، وذلك باستثناء الدول الأوروبية (ماعدا بريطانيا) والدول الأمريكية التي تبقى الدبلوماسيين في الخدمة العاملة حتى سن ٦٢ سنة أو ٦٥ سنة حسب الأحوال للاستفادة من خبراتهم الطويلة المكتسبة عبر السنين .

والملاحظ أن الدبلوماسيين الغربيين يخططون مبكرا لخطوة الإحالة للمعاش . والبعض منهم خاصة الأمريكيين يعمل استاذًا للدبلوماسية والعلاقات الدولية في الجامعات الأمريكية بينما غالبية دبلوماسي العالم الثالث

غادة عندما تدعهم سن المعاش لا يعرفون ماذا يفعلون ويضيعون وقتهم في الجلوس في المقاهي والنوادي .

وكانت أفضل العروض التي تلقيتها عرضا من المملكة العربية السعودية للعمل مستشارا بمعهد الدراسات الدبلوماسية حديث الانشاء التابع لوزارة الخارجية السعودية .

في السعودية

في أوائل عام ١٩٨٤ اتصل بي مندوب معهد الأمم المتحدة للتدريب والابحاث « اليونيتار » وطلب مني الاستعداد للسفر إلى المملكة العربية السعودية للعمل مستشارا لمعهد الدراسات الدبلوماسية لبضعة شهور .

وقد كان ذلك مفاجأة سارة لي لأنه لم يسبق لي زيارة السعودية . وفعلًا سافرت إلى جدة ، وهي مدينة تجمع بين التراث المعماري الاسلامي العريق ، والامكانيات والخدمات العصرية من كورنيش يمتد لعشرات الكيلومترات على ساحل البحر الأحمر ، ومحطة تحلية مياه البحر جبارة ، وأسواق تجارية حديثة مكيفة على أحدث طراز تحيط بها ساحات واسعة لانتظار السيارات ، وطرق مزدوجة وكبارى علوية ، ومطار هائل وميناء ضخم - وقد زينت الميادين بأحدث قطع الفنون التشكيلية والتماثيل التي تعبر عن حضارة المملكة وتراثها .

ولم تدم أقامتي طويلا بجدة حيث تقرر نقل وزارة الخارجية السعودية إلى مينائها الجديد في العاصمة الرياض في أكتوبر ١٩٨٤ ، وكذا انتقال السفارات المعتمدة بالمملكة بدورها من جدة إلى الرياض .

وبافتتاح وزارة الخارجية ، وهي تحفة معمارية رائعة تجمع بين طراز البيئة الصحراوية النجدية ، وأحدث أساليب التقنية العصرية في الاتصالات الخارجية وحفظ المعلومات والمتطلبات الأمنية وأجهزة التكييف والاضاءة المنعكسة ونوافير المياه وقاعات الاجتماعات والاستقبالات والمآدب - واندماج معهد الدراسات الدبلوماسية ضمن مبنى الوزارة - فبدأ عدا قسم تدريب

زوجات الدبلوماسيين السعوديين ، فله مبنى آخر مستقل في الحي
الدبلوماسي - بدأت تجربة جديدة في العمل في الرياض .

والرياض العاصمة وهي تحتفل في مارس - آذار - عام ١٩٨٦ بمرور
خمسین عاما على انشاء بلديتها قد قفزت بين الامس واليوم قفزات عمرانية
هائلة تجمع في تمازج رائع فنون العمارة قديما وحديثا ، وتعكس صور الماضي
باصالته والحاضر والمستقبل بمعطياته وتقنياته الحضارية .

والاهم من ذلك المواطن السعودي ذاته بما يمثله من قيم وتقاليده
مستمدة من العقيدة والتعاليم الاسلامية ووثيقته الكبرى تحت قيادة الأسرة
المالكة بخيرها وبرها وإيمانها العميق من أبناء المغفور له جلالة الملك
عبد العزيز آل سعود كل ذلك يستحق منا دراسة مستقلة وحديثا آخر .



رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٨٧ / ١٦٨٥

حياة السفراء رغم جديتها وصرامتها والطابع الرسمي الذي يغلفها ، لا تخلو من مواقف طريفة ومازق لها طابع فكاهي . وفي هذه المجموعة يروى السفير جمال بركات مجموعة من الطرائف والمواقف الطريفة التي تعرض لها أثناء عمله الطويل .

والسفير بركات من أبرز الدبلوماسيين المصريين ، فقد عمل سفيرا لبلاده في أوغندا وبوروندي وفنلندا والعراق ، كما عمل في بعثاتها الدبلوماسية في لندن وحلب وواشنطن ، وخبيرا في منظمة الوحدة الأفريقية ، وتولى منصب مساعد مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي ، وعمل مديرا لمعهد الدراسات الدبلوماسية بالخارجية المصرية ، ومستشارا للأمم المتحدة ، في معهد الدراسات الدبلوماسية بالسعودية . وحصل على عديد من الأوسمة من مصر والخارج ، وله عدة مؤلفات بارزة .

الناشر

www.liilas.com

florist

مركز الأهرام للترجمة والنشر

مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع

ش. الجلاء - القاهرة

مطبع : دهرام التجارية - قلوب - مصر